طعم الذكريات

دكتورة
عطيات أبو العينين

دار الطلائع

طعم الذكريات

مالت الشمس نحو المغيب، صانعة من الشفق الأرجواني وسادة لدنة لتستريح عليها بعد طول تجوال ذكرني احمرار شفقها بمذاق طالما تذوقته من نسمات رقيقة دغدغت وجهي، إلى أصابع خشنة عبثت برأسي ، وأنامل حانية ضفرت جدائلي مع صوت عذب خشنته حدة الزمن فراح ينساب في رقة وعذوبة كنهر صاف لم تعكره السنون.

ما أجمل الحنين إلي الماضي بعبقه وعذاباته وحلاوته، بمرارته وطلاوته، والغريب أننا نجد في ذلك لذة لا تعادلها لذة، نحن للذكريات بما يحمله الماضي من آلام ولا ندري كنه هذا السر العجيب.

لفحني هواء المغربية ذكرني بليالي الإجازات الجميلة بعد عناء الامتحانات والشعور بالراحة اللذيذة وليالي الكد والسهر، ينتابني ذلك الإحساس بالخدر اللذيذ، والدفء الذي يسري في أوصالي،

كلما مال القرص الذهبي ناحية الغرب وآذن بالرحيل، أتذكر تلك السحب التي تركض في الفضاء خائفة مذعورة، وقرص الشمس ذابل حزين عاصب الجبين، يركض خلف السحب، وسكون البحر يشهد عليهما، فترى فيه خشوع الزاهدين، وأحلامي التي أراها في أيامي ومنامي، وكأني أرى أحلام الطفولة وهي تتوارى خلف الجبل العالي البعيد، وأرى سني الكبر وهي تركض نحوي كوحش ضار، كشر عن أنيابه ،ولمعت عيناه ببريق الافتراس، وكأني أقع من أعلى صارية كنت أظنني بمنأى عن السقوط في أغوارها، ربما تلك الصورة جعلتني أحن للماضي البعيد بذكرياته وما فيه، فأتخيل نفسي تارة، سلمي في أشعار إيليا أبو ماضي، أو ليلي حبيبة قيس، فأراني وقد أمسكت بقصة لتشيكوف أو موباسان أو اندريه جيد أو ليوسف إدريس أو رواية لنجيب محفوظ، أو يوسف السباعي بوجهه الوسيم وضحكته العذبة فلطالما أمعنت النظر إلى صورته قبل أن أقرأ له أية قصة وكثيرا ما تخيلت نجيب محفوظ قبل أن أقرأ له فهو لا يضع صورته خلف الرواية مثل يوسف السباعي لكنني كنت قد رسمت له صورة عذبة من وحي خيالي علي قدر عذوبة كلماته وسريانها في دمي.

في زماننا فارس الأحلام هو أديب كيوسف السباعي، فلطالما حلمت أن أتزوج بمن يشبهه قلبا وقالبا وتقفز الذكريات وتتدافع

إلى رأسي فأتذكر كرسيا هزازا يقبع بجوار النافذة أحتفظ بمكانه لنفسي خصيصا للقراءة اخترت مكانه بجوار الشرفة، لأرى فيه مشهدا بديعا لا يخلف ميعاده معي، فأوزع ناظري بين مشهد الغروب الرائع، وسطور الكتاب التي تعلقت عيناي به، ولا أرضى عنهما بديلا، ولكنني أحتضنه حتى لا يفوتني لون من ألوان الطيف.

فالألوان عالم له سحره أحاول اكتشافه وسبر أغوار أسراره، ودلالاته تجعلني أحتضن العالم بأسره أحبه وأتمنى أن أعيش بطلة في رواياته، أسبح في ألوانه وأظل أعد ألوان الطيف، وفي كل مرة يفوتني لون من ألوانه، أحرص أن أبدأ به في المرة القادمة لكنني أعود لنسيان إحداها رغما عني، بالرغم من أنها سبعة ألوان فقط لكنني دائما أنسى لون منها إلا ذلك اللون، فالأحمر لا يمكنك أن تغمض عينيك عنه فكيف لك أن تغض طرفك عن وهج الحياة وبهجتها، يذكرني بوجنتي ابنتي ببرائتها وذلك الألق في عينيها البريئتين، لون يذكرني بقراراتي الحازمة التي لا تستوجب مني أي تردد، وتلك الحيوية والتدفق الذي يجري في عروقي عندما أرتديه، أحيانا أشعر معه أني قوية شجاعة أهيم بمن حولي، وأتعلق بأهداب الحياة وأعشق المغامرة ، وأتمنى أن أعيش كل ضروب الإثارة.

أتقلب.. تارة أجدني طفلة وأحيانا طائشة ربما أنتمي لهؤلاء الحمر الذين يعيشون ساعتهم ويحيون بكل حماس فالقضية الحمراء تشغل

الكثيرات من بنات حواء في الهند وغابات التبت يرمزون باللون الأحمر لقوة الخلق الموجودة لدي النساء و الطاقة المتدفقة بداخلهن، أمسكت بقلم أحمر الشفاه ورحت أرسمها وكأني أحفر علي صفحة الذكريات لونا أعشقه، غير أن المشكلة لدي لا تكمن في ذلك اللون، ربما في اللون البرتقالي، فرغم أني أحبه إلا أنه يزعجني بعض الأحيان ولكي أرتديه لابد وأن أكون في حالة مزاجية تسمح بارتدائه. فهو لون يرتبط والشخصيات الودودة المسالمة لكني أحذر الباهت منه فهو يجعلني منكسرة ضعيفة حزينة وخائفة حاولت تذكر لون آخر من الألوان السبعة.. تعثرت ذاكرتي.. ربما.. تذكرت .. إنه الأصفر لا أدري لماذا أنسي ذلك اللون الذي يجعلنا نشعر بعالم من الغيرة واضطراب في المشاعر، عالم مقيت ربما يكون مليئًا بالحقد والكراهية في نفوس كثيرة ، هذا اللون تكرهه أمي لا تستطيع تحمله أو مجرد رؤيته، هل ذاكرتي هي انعكاس لما يعتمل في عقل وقلب أمي ، هل أعيش ما تودني أن أعيشه فأرى العالم بقلبها وأحب بعقلها... ربما... لا أدري ؟

كثيرا ما ردد البعض أنه اللون المفضل للأذكياء وبرغم شهادة الكثيرين لذكائي وقوة ملاحظتي لا أميل لهذا اللون ولا لما يقوله عنه البعض وبرغم أني شخصية عملية وموضوعية أحب المرح وأعشق الإنطلاق إلا أني أمقت هذا اللون وكأني في عناد مع ما يطلقونه علي

من يحبون كل أصفر.. فهو يذكرني بالشحوب والذبول والخريف في اصفـرار أوراقه.. وخبث الأقلام الصفراء وبالرغم من ذلك فأنا من تلك الشخصيات المتفائلة التي تستطيع أن تختبر الإحساس والمشاعر الجيدة والناضجة.

حاولـت اسـتدعاء اللـون الأزرق فهـو لـون النفوس الحساسـة المرهفة، لم يهرب من ذاكرتي فأمامي السـماء والبحر اللذان أعشقهما، ولكني لسـت ممن يتمتعون بهذه الدرجة من برودة الأعصاب وعدم الحزم والقوة .

عدت من جديد أعد ألوان الطيف التي اسـتطعت تذكرها حتي الآن محاولـة الإمسـاك بتلابيـب الذاكـرة حتـى لا يتـسرب لـون من الألوان السبعة من ذاكرتي كما تفر المياه من المصفاة، ولا يستطيع أحد أن يدركها أو يتشبث بها.

انتابني الملل فقررت الذهاب للسوق، توقفت أمام فاترينة إحدى المحال التجارية، جذبتني بلوزة بسـيطة ، ولأول مرة أقرر أن اشتري مـا أعجبني دون تـردد، فأنا من ذلك النوع الذي يدقق فيم يشـتريه، ويلـف مئـات المـرات حتـى لا يغلبني بائع بشـطارته، لأني سأشـعر بحزن شـديد إذا ما غلبني البائع ولن أسـامح نفـسي على خداعه لي، وسأشـعر بزهـو الانتصار إذا اسـتطعت أن اشـتري مـا أرغب بأقل سـعر، كثيرا ما لامني زوجـي على هذا الوقت الضائـع الذى أهدره

مـع الباعة فهـو يكره البيع والشراء ، ولولا أني أشـتري له احتياجاته وأحيانـا أصطحبه معي عنوة للمقاس ما ارتاد محلا أبدا، فهو دائما ما يقول لي:

- أنت أدرى مني بهذه الأشياء .

تذكـرت كلماته وأنا أقطع الشـارع القديم ذهابا وإيابا.. تغير كل شيء فيه، المحال ووجوه الماره ، حتى البائعين غدوا عابسين، جالسين علي مقاعدهم لا يبرحونها لدخول زبون وكأنهم يتمنون عدم شرائه، كنت أنظر في دهشة أين هذا من الزمن الجميل، الذي كان يقوم لك صاحب المحل، ويضع البضاعة كلها تحت قدميك، وإن لم تشتر فهو الفائز بك لأنك ستعود حتما في يوم ما إليه.

شعرت أن ثمة شـيئ يدفعني لشراء هذه البلوزة المعروضة، لكن لم أسـتطع أن أحدد بالضبط ما هو هـذا الشيء الذي دفعني دفعا لأن أتمسك بها، وكأنها مسألة حياة أو موت.. كدت أجن عندما أمسكت بها إحدى السيدات، ودون أن أدري وجدتني أرجوها أن تتركها لي، نظرت السـيدة بتعجب وابتسـامة ذات معنى وتركتها ومضت وهي تخبط كفا بكف وتمصمص شفتيها.

مرت أيام ونسيت هذا الأمر، ولكن يوما ما وبعد شهور طويلة فتحت خزانة ملابسي وأخرجت البلوزة، ووجدتني أتأملها، في تلك

اللحظـة، قفزت الذكريات إلي ذهني بكل صورها وتفاصيلها وكأني أعيش اللحظة

تذكـرت يـوم أن عـاد والـدي من رحلتـه إلي البرازيـل ، وقد أحضر لنا بعض الهدايا، كان من بينها بلوزة من نفس الطراز الذي اخترتـه، نعم بل نفس تركيبة وتمازج الألـوان بتدرجاتها المختلفة، وشـعرت بمذاق لذيذ كنت قد افتقدتـه منذ زمن بعيد، عرفت أن للسـعادة مذاقا لا نستشعره إلا ونحن نمضغ الذكريات، ونلوكها كقطعـة مـن لادن نطرقعهـا بأفواهنا ونجترها ونتشـدق بها أحيانا و لا تصـل إلينا منها سـوى تلـك الفرقعات التي تذكـرني بفرقعة السـوط الذي يتمطى في الهـواء، تارة يأخذ علامـة تعجب، وتارة علامة اسـتفهام وأخرى دائرة غير مكتملـة، وكنت أمتطي صهوة ذكريـاتي، لا أملك اللجام فرحت أسـابق الريـح وكأنني خرجت عـن حـدود الزمـن.

أتذكـر والدي وهو يخرج الهدايا من حقيبته، وابتسـامته لا تفارق شفتيه، يقص علينا قصة كل هدية من أين ومتى اشتراها وكيف لفتت نظـره ، كل منـا يحتضـن هديته وكأنـه ملك العـالم ، لم أدر بنفسي إلا والبلوزة بين ذراعي، فهذا المزيج الغريب من الألوان الذي ربما يشبه تمازج تركيبة ألوان عيون أبي.. تتماوج بين الأخضرار واللون العسلي

هذا الشعور الفطري دفعني في المرة الأولي، كما دفعني في الثانية لأن التقطها بين ذراعي كلقطة لعدسة فوتوغرافية ، تأبى أن تمر اللحظة دون أن تخلدها، وخالجنى شعور قوي بالسعادة، وماذا يهم في الأمر طالما شعوري هذا يجلب علي السعادة دون إضرار بالآخرين.

يتدافع سيل الذكريات إلى ذهني، فلا أستطيع أن أقاوم تذكر يوم أن زارنا في مدينتنا بورسعيد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بطلعته المهيبة، وحضوره الغريب ،ووسامته وضحكته الجذابة لها بريق أخاذ، سحر شخصيته العجيب الذي يسيطر على وجدانك دون أن تعلم إلي أين أنت ذاهب ، كنت أتمنى أن أزور القاهرة حتى يتسنى لي رؤية اثنين في حياتي جمال عبد الناصر وعبد الحليم حافظ، كم تخيلت زوجا يشبه عبد الناصر في كل شيء، ويحمل من صفات عبد الحليم بصوته الدافيء وابتسامته العذبة فرغم حزنها إلا أن هناك سرا خفيا يدفعني وراءها ..

حملتني جدتي لأمي إلي عربة الرئيس جمال ككثير من أطفال المدينة، وإن كنت أرى أن ما حملني إليه الحب والشوق لرؤية شخصية أحببتها منذ الصغر لحب أبي إياها ، فتمنيت أن أراها عن قرب في عربته المكشوفة ليقبلني وظللت أحمل هذه القبلة كوسام على خدي أفتخر به في كل مكان بين الأقران والقرينات.

ظـل هذا المشـهد محفـورا في ذاكـرتي ترويه لي جدتي حتـى اليوم، شـغف والـدي بحمل صور عبـد الناصر في بطاقته الشـخصية، على الرغم أنه لم يكن يحمل صورة لجدي.

رحـت أطوف كل ركن من أركان منزلنا وكأني أحلق حول أثر مقـدس، كم نشـعر بالضياع عندمـا ننفصل عن ذكرياتنـا وماضينا، عندما تنتزع منا الأرض التي سويت وجسدنا معا ، لقد زاد ارتباطنا بـالأرض لأننـا نمنـا عـلي أديمهـا، فلـم نشـهد رفاهيـة الطنافس و الأوبيسـون، ولكننـا ولدنـا ملتصقين بها ، ننام عـلي الأرض صغارا وكبـارا ، وكثـيرا مـا كانـت تهمس لنـا بالأحـلام ، والحبيـب والغد القريب.

عشنا نسمع أنفاسها، ونوبات غضبها، حتى ضحكاتها ، وبرغم أننـا نحمـل ذكرياتنـا في نفوسـنا، إلا أن عبق المـكان يمنحنـا الحياة وبدونها نشـعر بالخواء وبانعدام الوزن ربما نسـتطعم في حلوقنا طعم الذكريات.

أنطلـق وتنطلـق قدماي كظبيين بريئين ضـلا طريقهما في الفلاة ، داعبت النسـمات اللطاف ذكرياتي في علبتها الحمراء المبطنة بالقطيفة الناعمـة كوجـه وليـد هبط لتـوه من بطن أمـه قبل أن تفسـد نعومته عوامـل الطقس المتقلبة، واسـتطاعت أن تـضرب أقفالها التي كانت

يومـا تبرق بلونها الذهبي بعـد أن اعتلاها الصدأ، ولم تصمد الأقفال الصدئة أمام رقة النسمات ومداعبتها فسلمت أقفالها ومفاتيحها التي تنوء بحملها دون تردد أو تراجع ، فدغدغتها حتى راحت تسر بما في نفسها.. نعم هنا..

في تلـك اللحظـة تذكـرت جدتي لأبي، هـا هي غرفتهـا كما هي لم تتغير إلا منها حتي إنني أتنصت لحوائط غرفتها وهي تردد دائما أصل أنت بنت رأوة.

بنت رأوة

عدت من المدرسة أشعر بدوار و ارتفاع في درجة الحرارة، و رعشة في أطرافي، قدماي لا تقويان على حملى، ارتميت علي أقرب مقعد في حالة من الإعياء الشديد، ما إن وجدتني أمي على هذه الحال حتى انزعجت وقالت لأبي:

– البنت تعبانة يجب أن نذهب بها إلي الطبيب أخشى أن تكون مصابة بالحمى.

اضطرب أبي وقال لها:

– هيا بنا.

سمعت صوت جدتي من الداخل يصيح محتجا:

– ولا دكتور ولا حاجة ما تهولوش الموضوع، البنت محسودة.. أصلها بنت رأوة، وما تستحملش العين، من ساعة الست السِخَّرية

ما شافتها بعينيها الصفراء، وأنا قلت يا ساتر أستر عدي اليوم ده على خير، لكن بسيطة بإذن الله.

طلبت جدتي من أبي أن يأتي لها ببعض الأغراض وقالت له:

- بص يا جمال تعدي على البلاسي العطار وأنت جاي، وتجيب مستكة وحبهان وبخور جاوي وعين العفريت، وتفوت على أم اسماعيل جارتنا تقول لها أنا عاوز ديك بعرف أحمر ويكون أعور، و تروح سراية الست سهير الخوجاية هي غاوية القطط الشيرتازي (الشيرازي) أبصر بتقولوا عليها ايه، وتجيب مصارين قطة من عندها ومتنساش تروح لعمك سيد بلاميطه وتقول له على ناب سمكة قرش.

احمر وجه أبي وقال لها:

- معقول يا أمي هو ده اللي ها يشفي البنت، دي طلبات عويصة عقبال ما نجيبها تكون البنت راحت في خبر كان.

شهقت أمي وقالت:

- فال الله ولا فالك يلا بينا نلحق الدكتور.

وقامت الدنيا ولم تقعد فقد انتفضت جدتي وهي تزأر مشوحة بكل أطرافها في احتجاج.

تعجبت أمي مما يحدث وقالت لجدتي:

- هل ما تفعلينه سيخفض الحرارة ويشفي البنت !

رفعت جدتي حاجبيها ومصمصت شفتيها وهي تقول:

- حـرارة.. حـرارة إيـه.. وأبـصر إيه الـلي بتقولي عليـه.. البت محسودة ..

مصمصت أمي شفتيها، وهي تكتم غيظها خصوصا أن أبي أشار إليها أن تطاوعها حتى لا تغضب.. ارتدت أمي ملابسها على عجل، ألبسـتني بصعوبة بالغة.. حملنـي أبي للطبيب، راحت أمي تحدث أبي بلهجة عتاب:

- هي مش ها تبطل أمور السحر والشعوذة دي؟

ابتسم ابتسامته الرقيقة العذبة وقال لها:

- يجب أن تتحمليها..

****

انتظرنا دورنا عند الطبيب، وعندما فحصني الطبيب قال لأمي :

- الحمد لله إنك جبتيها في الوقت المناسب..

نظـرت أمي إلى أبي بطرف عينيها نظرة ذات مغزى، وفهم والدي ما تود قوله فأخفى ضحكته وحول وجهه للطبيب متسائلا:

- يعني ما فيش أي خطورة يا دكتور علي البنت ؟

أجابه :

– البركـة في المدام دايما تجيبها في الوقت المناسـب، هاتشـتغل هى دكتور وأنا ها قفل العيادة..

خـرج أبي مسرعا لإحضار الـدواء، وتوجهنا عائدين إلي المنزل وما إن رأتنا جدتي ندلف من باب الشقة حتى صاحت:

– واد يا جمال .. جبت الطلبات.

ضحك والدي وقال:

– كل ده وواد برضه.

راحت تقول:

– هو أنت ما عشـان شـنبك كبر وخط في وشـك خلاص يا وله بقيت راجل علي.

ربت والدي على كتفها وقال:

– العفو يا أمي .. واد وستين واد كمان .

راحت جدتي تعيد عليه نفس السؤال:

– جبت الطلبات يا واد؟

أجابها والدي في تلعثم:

– لا يا أمي بكره يحلها ألف حلال.

ردت جدتي:

- بكره .. وهي البنت ها تفضل تعبانة لبكره ؟

أجابها والدي:

- لا ماحنا جبنا العلاج اللي كتبه الدكتور.

ردت في سخرية:

- دكتـور إيـه .. اللي أنت جـاي تقول عليه .. صـدق العليل ولا تصدق الطبيب ..

أشار أبي لأمي ألا تفتح فمها وانسحبا إلي غرفتهما بعد أن أدخلتني أمي إلي سريري وأعطتني الدواء .

سـهرت أمي بجانبي طـوال الليل لتعطني الـدواء ، وفي الصباح كانـت حالتي قد تحسـنت حيث انخفضت الحـرارة ولكنني ما زلت أشـعر بدوار، وأشـارت علي أمي ألا أذهب يومها إلي المدرسـة حتى أسترد عافيتي ، بكيت كثيرا فقد كنت أحب المدرسة.

أشارت جدتي على أبي قائلة :

- انزل يا جمال عند عمك اسـماعيل ، وهات من عنده جوز فراخ شـامورد علشـان البت تآكل وتتغذى بعد التعب وماتنسـاش تجيب الطلبات .

أحـضر والـدي كل شيء ما عـدا مصارين القطة الشـيرتازي كما

تسميها جدتي و ناب سمكة القرش، قابل أبي في طريق العودة مدام سهير صاحبة القطط الشيرازي وهى تسأل عن قطتها التي اختفت في ظروف غامضة، وقد وجدها في حالة شديدة من العصبية والتوتر حاول تهدئتها ليفهم منها الموضوع ، لكن حالتها لم تكن تسمح لها بذلك .. انفجرت مدام سهير في البكاء ثم مضت وهي تمسح دموعها عندما دخل أبي وجد أمه تتهكم مستهزئة من ثورة مدام سهير وكانت مرتدية معطف الخروج الأسود فسألها:

- أين كنت يا أمي؟

تجاهلت سؤاله ولا حقته بسؤال آخر :

- هل أحضرت القطة الشيرتازي يا واد وناب سمكة القرش؟

قال لها :

- طبعا لأ . وأنا ها ألاقيها فين الحاجات دي !!

أشاحت له بيديها :

- كنت متأكدة إنك هتغرق في شبر ميه .. وبتقولوا رجالة.

أوصت جدتي كل البحارة والصيادين الذين تعرفهم ومن لا تعرفهم عن ناب سمكة القرش حتى تكمل رأوتها، وكان هذا الموضوع يسيطر عليها ويضايقها إلى حد كبير.. ذات يوم سمعت

من جارتنا أم اسماعيل أن أخاها السيد بلاميطه اصطاد سمكة قرش كبيرة وأتى ببعض أسنانه للذكرى.

قامت جدتي على عجل وذهبت لأم اسماعيل حتى تحصل علي ناب سمكة القرش ، وغابت ساعات طويلة وعادت متأخرة منهكة القوى، وما إن رأت والدي حتى وبخته على تقصيره في عدم الإتيان بناب سمكة القرش والقطة الشيرتازي.

– مش كنت وفرت على المجهود ده.. طب ده عمك السيد قعد يحكي لي حكاية القرش المخيف وطوله اللي وصل لعشرة متر ، وكل ما يضربوه على دماغه يزيد شراسة وهجم عليهم هجمة تصدق يا واد يا جمال عشر رجالة ما قدروش عليه!..

قال لها:

– والنهاية يا أمي.

ضحكت بثقة وهي تلاعب حاجبيها :

– بكره بمشيئة الله ها أرقي هند ، وها تبقى زي الفل ، وبكره تقول أمي قالت .

– والقطة الشيرتازى.

ضحكت وهي تحرك أمامه كيسا محكوم الإغلاق

آدي مصارينها.

حقيبتي الفرعونية

رحت أستلقي على ظهري لكثرة ضحكي، وأنا أتذكر ذلك اللقب الذي لقبتني به جدتي «بنت رأوة»، ودون أن أدري كانت تلك الكلمات جواز مرور كلما وقعت بمشكلة لا أجد لها حلا أو يستعصي علي حلها كنت أركن إلي أني بنت رأوة، كنت كمن حرموه من الماء لفترة طويلة حتى راح يلهث من العطش وجفاف حلقه ثم فجأة وجد نبعا من الماء لا ينضب، فراح يزدرد الماء كحاجة المحموم لشربة ماء، ومما لفت نظري في غرفة جدتي قطعة جلدية رسم عليها رسم فرعوني جميل أذكره جيدا رحت أستجمع الحروف والكلمات التي حفرت على بردية ذاكرتي وسرعان ما تذكرت حقيبتي الفرعونية.

بدلة بلون زيتوني جميل، لون من ألوان الحياة كأن الطبيعة تكسبني حلة جديدة، جاكيت محلى بقطعة من القطيفة الخضراء مع درجات اللون البرتقالي، وجهي يموج بالحياة النضرة التي أكسبتني الطبيعة

إياها، أعطتني أمي دبوسا فرعونيا مميزا من العاج هدية لأعلقه على صدري، لم أنس ارتداء نظارة شمسية تتلاءم وموديل البدلة ولونها.

صحبني والدي في نزهة للترفيه عني، إلي صديق عمره عمو «عزيز حنا» فهو يملك خانا تجاريا كان ملكا لوالده وتفرغ عمو عزيز للخان بعد خروجه على المعاش، بحي الإفرنج كما كانوا يطلقون على هذا الحي حيث كان يسكنه قبل الثورة الأجانب من الإيطاليين والإنجليز واليونانيين، وجاليات أخرى، لقد كان عمو «عزيز» أقرب لوالدي من أشقائه، ولي من أعمامي.

حي الإفرنج ذو طابع خاص تميزه مبانيه التي صممت علي طراز أوروبي، وحوانيته الفاخرة بواجهاتها البراقة ، ونظافة شوارعه المبهرة، وتلك الميادين التي تتوسطها فسقيات تنير ظلمة الليل، وتنشر رذاذها الفسيفسائي على كل المارة فتبعث الندى أفراحا كما يبعث الصباح العليل التفاؤل..

رحت أجوب ميدان المنشية بسعادة بالغة تطالعني النافورة الكبيرة بمياهها المتدفقة، كشاهد على عودتي للحياة، وكأن الحياة تمدني بإكسيرها لأنمو كما تنمو..

في الحانوت الذي يملكه صديق والدي «عمو عزيز» لفت نظري كم من الحقائب والملابس الفرعونية ، بالرغم من صغر سني كنت أحب المصنوعات والمشغولات التي تأخذ الطابع الفرعوني

برسومها، لاحظ « عمو عزيز» أني أتفرس في حقيبة بعينها.. ثبت نظري عليها.. رائعة الجمال تجمع بين اللون الزيتوني واللون البيج الفاتح، ورسم عليها باللون الذهبي تمثال أبي الهول.. فقال لي:

- أتعجبك الحقيبة يا هند.. خذيها.

لم أصدق نفسي وأنا أتأبطها، فبدت مع حلتي تحفة فنية وكأنها صنعت خصيصا لتلائم بدلتي الجديدة التي صنعتها أمي لي بيديها:

وعندما عدت إلى البيت أعجبت أمي بالحقيبة كثيرا، وسررت لأني استطعت أن أختار شيئا جميلا تثني عليه أمي، فقد كان ذوقها عال لا يضاهيها أحد في اختيار الملابس والألوان، فكانت هذه الشهادة بمثابة تصريح لي بأن ذوقي عال مثلها..

في غفلة وقت القيلولة ذهب الجميع لنوم العصاري، احتضنت حقيبتي الفرعونية وأخذت حذاء أمي ذا الكعب العالي الرفيع، ورحت ألف المنشفة حول خصري بإحكام، حتى أظهر كالفتيات الكبار، وهن يبرزن مفاتنهن ويتمايلن كالحوريات، وقد أحضرت جلادا من السوليفان الأحمر الشفاف، ووضعته على شفتي ليقوم بدور أحمر الشفاه، ثم أخذت منه اللون الأزرق لأضعه كظل فوق العينين.

وقفت أتأمل نفسي وأنا أسير بالكعب العالي والماكياج، والجيب

الضيـق، وقـد فككت أسر جدائلي، فبدا شـعري غزيـرا طويلا ناعما حالكا، أختال بنفسي كفتاة كبيرة تحمل حقيبة بيد طويلة علي كتفها، ترتـدي حذاء أنيقا بكعـب عال مدبب.. رحت أرقـص به وأدبدب كراقصات الكلاكيت كما نراهن في الأفلام القديمة، استيقظ كل من والـدي علي صوت فرقعات الكعب العالي، وأخذت علقة سـاخنة، يومهـا كرهت الكعـب العالي ورقص الكلاكيت والسـوليفان وكل أنواع الماكياج..

أعطتنـي الحقيبة الفرعونية شـهادة جديدة بأنني صرت فتاة كبيرة أتأبطهـا، أختـال بها في الذهـاب والإياب، أرقب مـن بعيد إعجاب الفتيـان وحسـد الفتيـات وغيظهن، فمـن منهن تمتلـك حقيبة مثلي، ولكن كانت تنقصني أشياء لأبلغ مبلغ الكبار.. «حذاء كعب عالي» عـلى مقاسي بـدلا من هذا الحـذاء الكبير الذي أبدو فيـه وكأنني قزم يلبس قاربا في قدميه، وسـأخفي الحذاء في حقيبتي الفرعونية، علاوة على ذلك فالحقيبة لابد أن يكون فيها قلم أحمر شفاه وزجاجة بارفان وعلبـة ماكيـاج لم أتعـب في الحصول عليهـا فلقد كانـت حقيبة أمي بالقرب مني رحت أنقل أشياءها إلى حقيبتي..

مازالـت هنـاك أشـياء أخرى لا تقـل أهمية عـن البارفـان وأحمر الشـفاه. لابـد أن تحتوي الحقيبة عـلى أوراق مهمة، وهـل هناك أهم

مـن أوراق أبي.. بطاقتـه العائلية، حجة البيت، عقـد زواجه، بعض الكمبيالات، واجبة التحصيل إيصالات الكهرباء والمياه..

بعـد أيام وجـدت البيت في حالـة ارتباك لم أرها مـن قبل.. الكل يبحـث عـن أوراق أبي.. ورحت أبحث معهم..فتشـت أمي في كل مكان، اتهمت البنت الشغالة قائلة:

- لايوجد غيرها هى التي أخذت الأوراق.

أجابها والدي:

- حـرام نظـن فيهـا .. هـذه الفتاة تربت وعاشـت وسـطنا طول عمرها .

تنهدت أمي وهي تقول بانفعال:

- إذن من مصلحته يسرق هذه الأوراق؟

أجابها :

- كثيرون يا عزيزتي..

أجابت أمي بسرعة :

- ربما أحد إخوتك!

أجابها:

- منذ سنوات طويلة لم يزرنا أحد منهم.

احتار الجميع وجلس أبي وعلى وجهه أمارات الهم والحزن يفكر فيم يفعل، ولم أتمالك نفسي فكيف لي أنا الطفلة الصغيرة أن أمتلك في حقيبتي كل هذه الأوراق المهمة وأبي قد فقد كل أوراقه.. اقتربت منه ورحت أحدثه بصوت أوشك على البكاء:

- أحزين يا أبي؟

مر بيده على شعري وهو يقول في وجوم كأنه يحدث نفسه:

- وكيف لا أحزن.. وأنا لا أستطيع أن أؤمن حياتك يا صغيرتي.. فأنت لا تعرفين أهمية هذه الأوراق.. عندما تكبرين ويكون لديك أوراق مهمة ستعرفين كم أنا حزين..

رحت أربت عليه ثم أخرجت من حقيبتي حافظة الأوراق أعطيها لوالدي وأنا أقول له :

- لا تحزن يا أبي ها هي أوراقي المهمة خذها حتى تجد أوراقك

راح يقلب في الأوراق بدهشة، ولم أجد سببا لتلك الصفعة التي هوت على وجهي، بل زادت دهشتي لحرماني من الكعب العالي والحقيبة الفرعونية.

المُصَحِّي

شق سكون الليل بصوته الجهوري :

يا صابر يا بصلة .. يا بصلة.. غدا في الثانية صباحا..

أعادها ثانية ليتأكد من أن صابر قد سمعه لكن لا مجيب فجسده المنهك من رحلة لم يمض عليها سوى سويعات لم ينعم بالنوم بعد ، فصار هو والفراش شيئا واحدا .. يرى فيما يرى النائم ويسمع كمن يأتيه الصوت من أغوار بئر عميقة ليس له قرار لكنه لا يستطيع أن يرد . الصوت لا يزال ينادي :

– يا صابر يا بصلة .. يا بصلة.. غدا الساعة الثانية صباحا..

استيقظت فاطمة زوجة صابر على صوت صداح « المصحي « فهزت جسد زوجها الذي صار أشبه بمومياء خلفها التاريخ من زمن بائد وراحت تناديه :

– صابر .. المصحي ..

لم يحرك صابر ساكنا .. فالنوم على تعب كجائع هبط على وليمة.. هزته ثانية وهي تقول :

– صابر سيفوتك الميعاد .. مسكين .. تسير المراكب على ربطتك وأنت لا تجد من يربطك ..

هزته هذه المرة هزة قوية قام على أثرها منتفضا يفرك عينيه وهو يسعل بشدة ويخور كثور مل من دوران الساقية ، ثم تثاءب وهو يتساءل بصوت خالطه النوم والإنهاك:

– سفرة جديدة ؟

أومأت برأسها دون أن ترد وهي تنظر له بإشفاق ، حرك رأسه يمنة ويسرة كي يفك عنها أغلال النوم والإنهاك :

– وهل انتهينا من سابقتها ..

راح صابر ينفض النوم عن عينيه ويسأل زوجته :

– ماذا هناك يا فاطمة ؟ ألم أقل لك مرارا لا توقظيني بهذه الطريقة..

ردت قائلة :

– إنه عم صداح المصحي يناديك اليوم الساعة الثانية صباحا .

نظر في ساعته فوجدها قد قاربت الثانية عشرة ولا يزال صوت صداح يأتيه من الخارج كمغني يحفظ أغنيته عن ظهر قلب ويصدح بها ويجود فيها وينوع في المقامات وهو سعيد كمن يشدو في دار الأوبرا ..

فتح صابر زجاج النافذة وأطل منها وقال له:

خلاص يا صداح .. ستغنيها لي .. تارة سيكا وتارة نهاوند والحال ماشي .

قبل أن ينصرف صداح ليوقظ آخر أوقفه صابر قائلا :

– ألم أقل لك مرارا اشتر «نوبايل» أفضل لك ؟

ضحك صداح وراح يسعل حتى انتفخت أوداجه وقال :

– نوبايل حتة واحدة . قل يا باسط .. نهايتي أنا وأنت على رصيف الميناء في نهاية الخدمة ويزيد الله المحسنين .

انطلق صداح مسرعا علي دراجته بسرعة البرق كمن يرتاد صاروخا وهو يؤنس وحشة ليله البهيم بصفيره المتناغم ويدندن بأغنية لعبد الوهاب طالما أحب سماعها منه عمال الكنال اجري اجري اجري .. يحب صداح مهنته ويحب زملاءه في العمل ويعشق دراجته والطريق الذي يمشي عليه حتى القطط والكلاب التي تستقبله وهو خارج إلى عمله في الفجر ..

شرعت فاطمة على الفور تعد لزوجها الحقيبة التي تعود أن يستخدمها في أسفاره هذه والتي أفرغتها لتوها وهي تقول له:

– لم تأخذ قسطك من الراحة يا صابر ..

يرد عليها بلهجة استفهامية :

– وهل في الحياة راحة يا فاطمة أواهمون نحن؟

– لا عليك يا صابر .. هيا لتلحق بالمركب قبل أن تسير .. في رعاية الله .

يقبلها وهو يقول بصوت خفيض :

– ادع من قلبك ألا تكون المركب هذه المرة روسي ..

تضحك وهي تعقب :

– حقا فالسفرتان الماضيتان كانتا ناشفتين .. من الروسي إلى الهندي يا قلب لا تحزن .

– لا تذكريني بالهندي ، فيوم الهندي تظل معدتي خاوية تحتج وهي مغلقة على أنقاضها منذ أن أخرج من البيت إلي أن أعود إليه ثانية حتى أنفي تعترض هي الأخرى على رائحة الخنزير والخمر أحاول بكل الوسائل أن أغلقها حتى لا تتسرب إليها تلك الرائحة العفنة لكن دون جدوى ..

إذن عليك وعلى التفاح الأمريكاني ..

– أعوذ بالله يغور ويغورون معه ربنا يكفينا شرهم.. دعيني الآن يا فاطمة فالمركب سوف تتركني .. قبلي الأولاد .. ربنا يرزقني برزقكم .

لمح صداح يأتي من بعيد متمهلا وهو يناديه ..

– لا تنس يا صابر المعطف الذي أوصيتك عليه .

ادع لي أن يكون الطريق هذه المرة خيرا وبركة ..

قفز صابر داخل القارب الصغير الذي نقله بدوره إلى السفينة وكما توقع كانت روسية " ناشفة " على حد قوله .. وبالرغم من ذلك عاد من سفرته يحمل كيسا يتأبطه وكأنه يتأبط ذراع حبيبته المشتاق إليها ويخشى أن تفلت من تحت قبضته وراح يتجول ببصره يمينا ويسارا باحثا مرددا :

– أين هذا الرجل العجوز صداح ؟

اصطدم صابر بصلة بزميله يوسف الضبع فأوقع رغما عنه بالكيس الذي يتأبطه وراحا يلمان محتوياته وهو يسأله :

– يوسف .. ألم تر عم صداح المصحي ؟

مصمص يوسف شفتيه وهو يقول بتأثر :

– العمر الطويل لك يا صابر فقد قابل وجه كريم ..

سقط الكيس رغما عن صابر وهو يصيح :

– مات ..

تنهد يوسف معقبا :

– تناول العشاء في بيته وطلب من زوجته كوبا من الشاي راحت تعده وعادت لتجده لفظ أنفاسه . كانت جنازته بالأمس .

دمعت عينا صابر وهو يردد :

– مسكين يا صداح ظللت تحلم بمن يوقظك ولن تستيقظ بعد الآن أبدا ..

بادره يوسف قائلا :

– لقد اختاروك في الميناء مكان عم صداح ..

انتفض صابر صائحا :

– مصحي ؟

– أجل فأنت أكبرنا سنا والدور عليك ستعمل منذ الآن على البر..

تجهم وجه صابر فصار أكثر عبوسا وقد تداخل حاجباه مع جبهته ليكونا رسما عجيبا أشبه بتلافيف الأمعاء فلا يظهر منه شيء.. وصل صابر إلى منزله متجهم الوجه عابس ، وراح يقص على زوجته ما حدث .. قالت مهونة عليه :

– لقد حان الوقت لترتاح من عناء البحر والسفر يا صابر .. فأنت لا تدري كم عانينا في غيابك طوال السنوات الماضية وكم أعاني في كل سفرة إنني لا يغمض لي جفن وأظل أدعو بكل الأدعية التي أعرفها والتي لا أعرفها حتي تعود لنا سالما ..

هز رأسه قائلا كمن يحدث نفسه :

– أنا كالسمك لو ترك البحر يموت ..

بعد الشر عنك . هيا أدخل لتنام فأنت متعب من السفر .

ضحك بمرارة وهو يقول :

– عندي وردية..

ارتـدى صابـر المعطف الذي كان قد أحـضره لصداح وانطلق بعجلته وهو يردد أغنية عبد الوهاب اجري اجري اجري ، فهو يحب مهنته وأصدقاءه في العمل ويعشق دراجته والطرق الذي يمشي عليها حتي القطط والكلاب التي تستقبله .. وتحت شباكه وقف ينادي :

– يا صابر يا بصلة استيقظ لقد كنت في غفلة طويلة ..

ثم انطلق يحدث نفسه هو يضحك في سخرية :

– عجيبـة أقدارنـا ..نظل نائمون عهودا طويلـة ونوقظ غيرنا مع إننا أولى منهم باليقظة لكنها أقدارنا ..تسعى إلينا ونسعى إليها وننام ليستيقظ غيرنا ونستيقظ لينام آخرون .. نم يا صداح هنيئا لك فلقد استيقظنا بنومك.

ليلة زفاف

أيقظه الظلام الدامس الذي يحيط به ، راح يتحسس المكان من حوله .. ما الذي أتى به إلى هنا ؟ .. صداع رهيب يدق رأسه بعنف .. وآلام مبرحة في أنحاء جسده .. حاول أن يتذكر آخر لحظات يقظته قبل أن يفقد وعيه .. لكن الظلام يجثم على ذاكرته ، استطاع بصعوبة أن يرى من كوة ضيقة في جانب من ذاكرته الكليلة بصيصا من أحداث الماضي القريب وسمع هسيسا لم يتبين مصدره أهو زغاريد فرح أم صرخات ألم ، وتلك الأيدي التي تصافحه هل جاءت لتباركه أم لتصفعه..

بدأ يسترد وعيه المفقود .. وذاكرته الزاوية .. كانت ليلة زفاف انتظرها لسنوات طويلة وها قد جاءت اللحظة التي كثيرا ما حلم بها .. فوزية بجانبه .. تبدو في أبهى حلة ما أجمل النظر إلى وجهها الجميل..

لا يدري عبد الكريم برغال متى أحب فوزية أبو هنية.. كل

مـا يذكره أنه أحبها منـذ أن أصبحت له ذاكرة وعـى بها حب فوزية أبـو هنية أو ربما ولد به كحبه لوطنـه وأمه .. كان أبناء الحي يدعونها بفوزيـة برغال ويدعونه بعبد الكريم أبو هنيـة .. اختلطا معا منذ أن تجاذبـت روحاهما كأنهما انصهرا في بوتقـة واحدة فصارا كيانا واحدا يـري فيها شـبابه فهـي مرآته التـي تعكـس صورته .. مـا أجملها من صورة .. لم يشعر أنها جميلة إلى هذه الدرجة مثلما شعر بها الآن تذكره بالأرض البكر التي لم تمتد إليها يد بعد .

مـا الـذي حدث بعد ذلك ؟ خانتـه ذاكرته مرة أخرى وتوارت خلف أسوار الألم والجراح .. فالذاكرة كطفل عنيد ما تلبث أن تظهر حتى تختفي ثانية مضللة صاحبها .

انتفـض عبـد الكريم فجأة على صراخ شـديد تبـين منه صوت فوزية . وسمعها تصيح مستغيثة :

– دعوني أيها الأوغاد .. اتركوني وشأني ..

تذكـر عبد الكريم كل شيء .. وسـط زغاريـد الأهل والخلان تهبـط يـد قوية على كتفه .. يسـود هرج ومرج حفـل العرس مقوضا سـعادتهما منتزعـا فرحتهـما .. صرخـات هنـا طلقات هنـاك صياح النسوة في الحي استطاع أن يميز من بينهن صوت أمه تصرخ بلوعة .. جنود الاحتلال يحملونه هو وعروسـه ويدفعون بهما في عربتهم التي انطلقت بهم ..

راحا يسألان عن تهمتهما.. كل شيء قد انتهى.. صاحت فوزية:

- ماذا فعلنا

لا أحد يجيب .. يصرخ عبد الكريم :

- خذوني واتركوها ..

أصمته الجندي الذي يجلس بجانبه بضربة قوية من عقب بندقيته أفقدته وعيه وكان آخر ما سمعه صرخات فوزية .. وها هو يفيق ثانية على صرخاتها .. يندفع عبد الكريم نحو الباب يدق بكلتا يديه وقدميه ورأسه .. يصيح في ثورة وانفعال :

- أيها الملاعين كم أود أن أهرسكم تحت أسناني ..

يفتح الباب يتقدم بعض الجنود يقتادونه إلى غرفة التحقيق ، التقت عيناه بعيني فوزية .. آثار التعذيب بادية على وجهها النضر الذي استحال إلى وجه امرأة أنهكتها السنون واستحال فستان الزفاف إلى أوحال وقطع من النسيج البالية ..

ماذا فعلوا بك يا فوزية ؟ .. هؤلاء المجرمون لن يفهموا حبنا ولا إيماننا بقضيتنا فلا يرون ما نراه ولا يدركون ما نؤمن به .

اطمئن يا عبد الكريم .. لن ينالوا منا حتى لو مزقوا أجسادنا، وفقأوا أعيننا وأصموا آذاننا ، لكنهم سينهارون حتما أمام إرادتنا الصلبة..

لم يكونا بحاجة إلى حديث يدور بينهما تنطقه الألسن بل يكفي أن تلتقي عيونهما ليفهم كل منهما ما يدور بخلد الآخر .

اقترب منه أحد الضباط ووكزه في بطنه ، ثم راح ينظر إلى فوزية نظرة ذات مغزى وبلغة عربية ركيكة قال:

– عروسك جميلة .. بإمكانك أن تعودا معا وتستكملا شهر العسل .. كل ما نريده أسماء رفاقك .. أماكن الذخيرة والسلاح

هز عبد الكريم رأسه إيماءة بأنه لا يعرف شيئا ..

نظر له الضابط بوقاحة ثم أشعل سيجارة وراح يقول بتحد :

– كان يجب أن تكون في هذه اللحظة مع فوزية .. فمادمت مصرا على الإنكار ستكون فوزية من نصيبنا نحن وسوف ترى بعينيك ..

يثور عبد الكريم ويندفع نحو الرجل في هياج يحاول أن ينقض على ذلك الوجه القذر يبصق في وجهه.. بينما الضابط يغمز بعينيه إلى الجنود الذين يدفعون فوزية بوحشية أياديهم تمتد إليها يمزقون ثيابها..يتناوبون عليها كذئاب جائعة عثرت على فريسة لاهية .. تصرخ فوزية يصرخ عبد الكريم تتعانق صرخاتهما ..

– اعترفي ..

رعشة قوية تسري في أوصالها تهز كيانها .. هذا هو السيف الذي سلطوه على رقبتها .. الاغتصاب .. لقد اغتصبوا شرف الأمة فيها..

زلـزال يقتلعهـا من جذورهـا .. تيارات تهز كيانهـا .. طائف يطوف بخلدها .. فبدلا من أن تكون الآن بين ذراعي زوجها وحبيبها تنهش الذئاب جسدها وينزعون عنها بلا هوادة كل المعاني والقيم الإنسانية يحاولون تجريدها من إنسـانيتها يتمنون إركاعها واستسلامها يبغون تحويلها لشيء فارغ محطم ..

كـم يشـعر بالعجز والهـوان .. امرأته تغتصب أمـام عينيه وهو مكبل لا يستطيع عمل شيء من أجلها ..

كـم تتمنـى في تلك اللحظة أن تلوذ بزوجها ليسـترها بجسـده المنهـك من آثار التعذيب .. تلحفت فوزية بالفضاء سـترا لها .. ففي لحظات كهذه يصبح الستر عورة والعورة سترا..

لم تعد الحياة بالنسبة لهما هدفا وإنما السقوط هو فقدان كل رصيدك الكفاحي ورصيد من معك ورصيد الأمة بأسرها ..

آه . يـصرخ . تصرخ . يصرخان بأعلى صوت .. يخيل إليك من شدة الصوت أنه آت من قبل الميلاد ، لعله أصوات كل من مرت بهم تلك الآلام والمحن أو أنه صوت الضمير ، فقد يهب لنجدتهما .. لكن لا مجيب .. تصرخ فوزية تتأوه لكنها تعود لتناجيه :

- عبد الكريم ..

وكأن مناجاتهـا سـند وتثبيت له عـلى الصمود والتحدي .. لقد

نسجت فوزية من شرفها المسلوب وإنسانيتها الضائعة إرادة لا يمكن قهرها ، شعرت في هذه اللحظة أنها لم تعد تشعر بأي آلام بل انتابها شعور جديد لم تألفه من قبل . قوة جديدة راحت تتغلغل بداخلها .. ، كانت الدماء تسيل منهما وعلامات التعذيب بادية على جسديهما راح كل منهما يحاول أن يرى الآخر لكنهما لا يستطيعان ، يخرج صوت عبد الكريم بالكاد ليقول :

- لم يغتصبوا إرادتنا .

ابتسمت فوزية في إعياء شديد مدت يدها محاولة الوصول إليه تحاول أن ترفع يدها يحاول أن يزحف بكل جسده من أجل أن يشعرها بأنهما معا رغم كل القيود يحاول الاقتراب منها تتشابك أيديهما يلتصقان يتعانقان يذوب كل منهما في الآخر ليصبحا كيانا واحدا لا يمكن فصلهما إلى الأبد .. صرخت فوزية صرخة مدوية قطعت سكون الليل . صمتت بعدها للأبد صمت الموت ..

تمتد يد غليظة لتغرس مخالبها في جسدها تعبث به تنهشه تحفر فيه يكشر عن أنيابه يغتاظ يقلب فيهما يصيح :

- ألن تعترفا .

لكن العروسان كانا قد بدءا ليلة زفافهما رغم أنفه.

سر اللوحة

أغمضت عيني كي أتأمل ذلك العالم غير المرئي المترامي الأطراف بسواده الحالك .. الخوف الشديد يخطف قلبي .. عيني المغلقة تصر على أن تجد شيئا وسط دياجير السواد كضرير يبحث عن قبس من نور وسط العتمة .. دوائر فضية تتراقص أمام عيني تتخللها خطوط ذهبية اللون.. الأسود يقهر كل شيء ..

هل السواد الذي في حياتنا ينعكس على صفحة ذاكرتنا لتحيلها ظلاما .. لم أر ألوانا أخرى تلون أيام حياتي غير هذا اللون القاتم ، تسلمني الحياة من قدر إلى قدر حتى تحولت أيامي إلى سلسلة من السواد ..

كلما ازداد خوفي أطبقت بجفني أكثر على عيني كالأم التي تحتضن صغيرها بكل قوتها خوفا من أن يرى ما يفزعه.. أجل .. تذكرت الآن حين كنت طفلة صغيرة تشعر بالخوف من المجهول حين يتركني الجميع وحدي في المنزل فألجأ إلى هذه الوسيلة التي

ابتكرتها أغمض عيني بشدة وأترك لخيالي العنان .. الدوائر الفضية تتراقص و تتمايل تتحول إلى دوائر أكبر تتسع شيئا فشيئا.. يداخلها لون أخضر كلون الحرير السندسي تخفق قلوبنا له ويأخذ ببصرنا ..

لملم الظلام ثوبه الفضفاض ورحل لكنه سيعود حتما في المساء .. فتحت عيني لأجدها تشرق من جديد وتغمر الدنيا بنورها الذهبي الوهاج ومع ذلك عاودني القلق، أشعر بالضجر من تلك العادة التي لا أستطيع التخلص من مزاولتها حاولت السيطرة عليها لكن دون جدوى

أمسكت بجريدة الصباح .. تصفحتها.. وقعت عيني على معرض للوحات الفنية .. الحق أنها لم تكن مصادفة فيدي تقلب الصفحات وعيني تجري على سطورها كالعداء الذي يصبو إلى الفوز لم أترك معرضا إلا وذهبت إليه ..

أنا الآن أمام المعرض رحت أمر على اللوحات مر الكرام كمن يبحث عن شيء بعينه أخيرا وجدت ضالتي .. تسمرت قدمي اتسعت حدقتاي غاب عقلي شرد بعيدا في عالم لا أعرفه .. شعور غريب ينتابني كلما رأيت عينيها الجميلتين لكني لا أدري سر الحزن الدفين الذي ينبعث منها كم تعذبت في تفسير سر حزنها كأن شيئا يربطني بها لكن لا أعرف ما هو ..

انتبهت علي صوت يحدثني .. الفنان صاحب المعرض.. لقد

تعـود أن يـراني في كل معرض وطيلـة أيامه وأمام هـذه اللوحة دون سواها .. جاءني صوته :

– هذه اللوحة أيضا .. ترى ماذا وجدت فيها جديدا عن المعرض الماضي ؟

انتزعـت نفـسي مـن تلك الهـوة العميقة التـي أخذتني وأجبت بصعوبة :

– تصور كلما تأملتها واقتربت منها أكثر وأدركت ألغازها أشـعر أني أجهلها .

ابتسم وهو يرفعها من على الحائط ويقدمها لي :

– تفضلي فلتقبلينها هدية مني .

حاولـت أن أدفـع ثمنهـا لكنـه أبى وبشـدة .. في البيت احتلت اللوحـة مكانـا بين مثيلاتهـا في غرفة مكتبـي التي اكتظـت بلوحات عديـدة لكـن الأمـر الغريب أنهـا تعبر عن وجـه واحد تلـك النظرة الغريبة التي حار فيها كل فناني العالم

مـا من أحـد يزورني ويدخـل غرفة مكتبي إلا ويبـدي إعجابه وحيرتـه في آن واحـد من دأبي عـلى جمع هذه اللوحـات. داهمني هذا الشـعور لدرجـة أننـي تركـت كل شيء أهملـت عمـلي .. وحيـاتي ودخلت في متاهة لا أستطيع الخروج منها ..

نصحتني إحدي الصديقات أن أذهب إلي طبيب نفسي ومن الغريب أنني وافقت على الفور .. استقبلني الطبيب بابتسامة جميلة وسألني بعض المعلومات عن حياتي وعن الشكوى التي جئت من أجلها لقد أحسست براحة كبيرة وأنا أتحدث إليه كأنه شخص تربطني به علاقة حميمة وأنا أعلم أن هذا سيسهل مهمته معي سألني إن كنت قد تزوجت أم لا ؟

أدركت الآن فقط أنني بلغت الثلاثين من عمري ولم أتزوج

قلت له :

– إنني أبحث عن شيء لا أعرفه ولا أفهمه ولا أتذكره ساعدني أرجوك يا دكتور .

ابتسم لي ابتسامة واثقة وهو يقول :

– أتعرفين أنني وضعت يدي على أول الخيط

تساءلت بدهشة :

كيف أرجوك أخبرني

إن ارتياحك للطبيب المعالج أهم خطوة واعتقد أنها تحققت .

أجبت وكأني لم أحصل على الرد المنتظر.

– حقا يا دكتور كم أتمنى ذلك ..

أصبحت من المترددين على عيادة الطبيب النفسي وفي كل مرة يحاول أن يصل إلي شيء جديد يقربه من اكتشاف سر معاناتي .. راح يسألني :

عندما ترين تلك اللوحة ما الأشياء التي تتوارد على خاطرك ؟ ولماذا تلك العينين بالذات وتلك الابتسامة ؟

رحت أفتش في ثنايا الذاكرة الآفلة ولكن لا رد ولا مجيب .. اقترح على الطبيب اقتراحا أن أرسم الوجوه التي تقفز إلي ذاكرتي حينما أري هذه اللوحة وكذلك الكلمات التي تتداعي إلي ذهني فور رؤيتي للوحة دون أدني تفكير

أمسكت بالقلم رحت أرسم على الورق وجها طالما تذكرته منذ سنوات هذا الوجه أشبه بالموناليزا أخذت أكمل الرسم وألونه ولا أدري لماذا لونت فستان المرأة باللون الأسود ..

أمسك الطبيب بالرسم وهو يقول :

– حاولي أن تتذكري .. هل تعرفين صاحبة هذا الوجه؟

– للأسف لا أعرفها لكن شعرت بشيء من الراحة بعد أن أفضيت إلى الورق ببعض مشاعري التي تؤرقني

أشار علي الطبيب أن أبحث في ألبوم صوري عن صورة تشبه هذه المرأة

عـدت إلي البيت أخرجت ألبوم صـوري قلبت فيه مرات عديدة دون جـدوى .. نصحنـي الطبيـب أن أزور أقـاربي أو أقرب الناس إلي.. قادتنـي قدمـي إلي خالتـي صفاء هـي بالفعل أقرب إنسـان إلى قلبي .. لم أرها منذ سنوات طويلة

شعرت بالارتياح عندما جلست إليها وتحدثت معها واقترحت عليهـا أن تريني صوري مع بعض أفـراد العائلة التي تحتفظ بها لديها أخـذت أقلب صفحات الألبوم وقلبي يدق بشـدة ويدي ترتعشـان فجأة تسـمرت قدمي واتسعت حدقتاي ودهشت خالتي وهي تراني علي هذه الحالة لفرط تدقيقي في الصورة فقالت لي

- ماذا دهاك يا ابنتي ؟

قلت لها وأنا لازلت تحت تأثير المفاجأة

- من هذه المرأة يا خالتي ؟

صاحت خالتي :

- ألا تعرفينها إنها أختي فوزية رحمها الله .. أمك ألا تذكرينها ؟

انفجـرت باكيـة زرفـت دموعـا لا أعـرف مـن أيـن أتـت .. احتضنتنـي خالتي شـعرت بدفء العـالم كله بين أحضانها شـعرت براحة لم أشـعر بها طيلة حياتي نفس الابتسـامة العذبـة الحنونة لكنها حزينة نفس النظرة العميقة التي طالما أخذتني من حياتي إلى حياتها .. أسبح في عالمها الأبدي ..

أخـذت الصـورة وتركـت خالتي وأنا أجـري ووجدتني في عيادة الطبيب وأنا ألهث لفرط المسـافة التي جريتها دون أن أشـعر كيـف وصلـت إليه على هـذه الحالة حـاول تهدئتي لازلـت أبكي وأنـا أصيح لقد تذكـرت كل شيء يا دكتور تذكرت مشـاجراتهما الدائمـة وأنا في غرفتي يهيأ لهما أني نائمة .. سـخطه وسـبابه الدائم لهـا.. تهديده لها بـأن يتركها دون مأوى أو عائـل كرهه لكل شيء حتـى أنـا فقد كان يتمنـي أن أكون ولـدا لكن لم أحقـق رغبته أما هـي فلـم تملك إلا أن ترسـم على شـفتيها تلـك الابتسـامة العذبة الحزينـة تذكرت يوم أن خرجـت ولم تعد فقد خرجت محمولة على الأعنـاق وعزلنـي أبي عن كل الأقارب والمعارف كأنـه ينتقم منها في شـخصي أنا .. مسـكينة يا أمي ..

انخرطت ثانية في البكاء دسـت الممرضة حقنة في ذراعي نمت عـلى أثرهـا نوما عميقا لم أنم مثله طيلة حياتي اسـتيقظت وأنا أشـعر أننـي على ما يـرام لكـن كأني سرت طريقا طويلا وسـمعت الطبيب وهو يقول :

– حمدًا لله علي سلامتك ..

ووجدتني أقول له :

– أقسي ما على الإنسان أن يبحث عن شيء لا يعرفه لكنه يحسه..

فالماضي دائما يترك رواسبه بداخلنا دون أن نعقلها لكننا نستدل عليه بأحاسيسنا .

أسرعت إلى غرفة مكتبي علقت وسط لوحات الموناليزا لوحة كبيرة لامرأة جميلة ذات نظرة عذبة وابتسامة حزينة صورة لأمي وهي تضمني إلى صدرها الذي لم أتذكره لكني أحسه بمشاعري .. ونبض داخلي إحساس جديد لم يراودني من قبل .. تمنيت أن أكون أما .

النص بالنص

نصف ونصف .. نصفان .. اقتربا من بعضهما البعض .. تلامسا .. اتحدا معا .. التحما ليكونا واحدا صحيحا ..

اختلست النظر إلي مجدي زوجي فوجدته مشغولا كعادته بآلته الحاسبة .. يعمل حسابا لكل شيء ، لم يكن مجدي هو فارس أحلامي وإنما تزوجنا بطريقة تقليدية ورحنا ننتظر فرصة للسفر وهاهي قد سنحت لنا ..

انتبهت على صوت مجدي بجانبي :

- فيم تفكرين يا حبيبتي ؟

- في الأيام القادمة ؟

ربت على كتفي مطمئنا وعاد إلى آلته الحاسبة..

وصلنا إلى مطار جدة وبدأت الطائرة في الهبوط ، توجهنا بعد ذلك إلى أحد الفنادق لنقضي فيها ليلتنا .. بت ليلتي ساهرة لم أستطع أن أذق فيها طعما للنوم ينتابني شعور غريب .. ربما بالانقباض أو

الخـوف من المجهول . هـو أيضا كان قلقا يتقلب كثيرا في فراشـه .. أحسست أن هناك أمرا يريد أن يفاتحني فيه ولكنه يبحث عن الطريقة المناسبة .. أخيرا اعتدل في جلسته.. أشعل غليونا . اقترب مني وهو يقول بصوت خفيض محاولا ألا تلتقي عيناه بعيني .

– ماجدة .. هناك أمر أريد أن أحادثك بشأنه ولكن ..

سـكت قليلا ليأخذ نفسـا من غليونه ويستجمع قدرا أكبر من شجاعته . أما أنا فلم أرد ، انتظرت حتى يفرغ ما في جعبته .. اقترب أكثر وراح يقول بصوت أقل انخفاضا :

– أنت تعلمين أنني تركت عملي في مصر وترقياتي ومستقبلي لكي آتي معك إلى هنا مضحيا بكل شيء ، من أجل الوظيفة التي حصلت عليهـا أنـت في هذا البلـد . لذلك يجب أن يكون هنـاك تعويض عن هذه الخسارة ..

بـدا كلامـه لي أكثـر غموضـا ، فرحـت أحثـه عـلى مواصلـة الحديث:

– وماذا ترى ؟

بدأ يكشف عن أنيابه أكثر فأكثر :

– أرى أن نقتسـم النقـود التي سـتتقاضينها بيننـا .. تعويضا عن الخسارة التي ستلحق بي نتيجة ترك عملي طوال هذه الفترة .

لم أشـعر أنني خسرت شـيئا في حياتي كما شـعرت بخسـارتي في

زوجي وحياتي اليوم .. راح ينتظر بشوق موعد تسلمي راتبي لكي يقتسمه . وعندما حان موعده أخذ نصيبه وأودعه أحد البنوك . ومنذ ذلك اليوم تحولت حياتنا إلى قسمة ، فكل ما بيني وبينه نصفان.. نصف له يحتفظ به ، ونصف لي يقوم بكل الالتزامات اليومية .. رحت أبغض القسمة مع أنني مدرسة رياضيات ولو كان بإمكاني لحذفتها من المقرر الدراسي ..

عندما عدت من عملي في أحد الأيام فوجئت به وقد أعد مائدة فاخرة ووجدته يحيطني بذراعيه و يهمس في أذني :

- كل عام وأنت بخير يا حبيبتي .

تذكرت .. اليوم عيد ميلادي .. ولكن كيف تذكره هو .. هذه هي المفاجأة الحقيقية .. كانت عيناي تنطق بما لايستطيع قلبي التعبير عنه .. لقد أحببته اليوم أكثر من أي يوم مضى.. وعدت ألوم نفسي على تلك الهواجس التي راودتني عندما طلب مني نصف راتبي .. وشفع له موقفه هذا كل ما بدر منه تجاهي .

كان المنزل ينطق بالفرحة والأضواء منعكسة على جدران الحوائط ببريقها الآخاذ ناطقة بحب حقيقي ولولا أني أرى بعيني لظننت أن هذا منزل آخر غير منزلنا وأننا زوجان غيرنا يتبادلان تلك المشاعر ..

أطفأنا شموع عيد الميلاد .. طبع قبلة على جبيني .. كنت سعيدة كما لم أسعد طيلة حياتي وهو يناولني هديته التي أحضرها من أجلي..

هممت احتضنه .. شعرت برغبة عارمة أن أضمه بشوق كل السنين الماضية وأن أضع رأسي على صدره ، لولا تلك الورقة التي ناولني إياها .

«فاتورة حسابات عيد الميلاد» ..

كدت أصرخ في وجهه وأنشب مخالبي في صدره .. تمنيت لو فقدت وعيي في هذه الحظة بالذات أو يتوقف الزمن قبل ثوان من الآن .. لقد ألقى بي من القمة على أرض صلبة فتحطمت عظامي بلا هوادة ..

كانت أصعب ليلة قضيتها في حياتي ، لم أشعر باتساع الهوة بيننا كما شعرت بها ونحن قريبان لا يفصل بيننا غير سنتيمترات قليلة ولكن على الرغم من قصرها فقد كنت أشعر أننا جرمان يمتد بينهما فضاء شاسع حتى أنني لم أعد أراه ولم يعد يراني .. جسدان باردان ممدان بلا حراك ..

نصفان .. منفصلان .. نصف ونصف .. اقتربا من بعضهما .. تلامسا .. اتحدا معا التحما ليكونا واحدا صحيحا .. ولكن بقى بينهما ذلك الفاصل الذي اجتمعا عنده . فمن السهل أن يتجزأ الواحد الصحيح ، ولكن من الصعب أن تتحد الأجزاء ..

صورة طبق الأصل

هـل أكون مبالغة عندما أقـول إن العيد عندنا أفضل منه في أي مـكان آخر ؟ مثلما نردد دائما أن شمسـنا هي أجمل الشـموس وجونا أفضل الأجواء . حتى لو كنت مبالغة ، فهذه هي الحقيقة .

فالعيـد هـو صوت المذيـاع يعلن بدايته وغناء أم كلثوم تشـدو لليلة العيد وحذاء جديد أحتضنه في سريري ، وخروج المصلين وهم يرددون

« الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا».

وأطبـاق الترمـس والحلبـة والحمـص التـي أعدتها أمي منـذ أيام ودقـات على باب البيت من مهنئين ، وزيـارات الأهل والخلان العم والخال والجد والجدة .

ترتسم هذه الصورة في مخيلتي منذ أن كنت طفلة وأنقلها بدوري إلي أطفالي الذين لم يشـعروا بالعيد كما شـعرت به أنا لوجودهم معي خارج البلاد .

لم أر هـذه الصـورة في أي بلـد زرتها ورحت أرسـمها في أذهان

صغـاري الذين راحوا يحلمـون بعيد يقضونه بـين أحضان الوطن ، وقررت أن أحقق لهم الحلم .

التففنـا حول المذياع لنسـتمع إلي ليلـة العيد من أم كلثوم وراح كل منهم يحتضن حذاءه وعندما فرغ المصلون من صلاة العيد هرعنا إلى النافـذة لنـردد معهـم « الله أكبر كبيرا » وجلسـنا ننتظر .. انتظرنا كثـيرا ولم يـدق أحد علينـا الباب بكى الأطفـال .. أيـن العيد ؟ أين الصورة الجميلة التي رسمتها لنا ؟

قلت لهم :

– قد يكونون مشغولين أو متعبين، فلنزورهم نحن .

ذهبنـا على عجـل إلي البيت الكبير ، بيت أبي وأمي ، الذي نسـجت فيه تلك الصورة الجميلة ، فإذا بأمي وحيدة بعد رحيل أبي تبكيه وتنعي الأيام التي ولت معه وتشكو من أن أحدا لم يزرها من أخوتي .

عاد الأبناء يسألونني بصوت أوشك علي البكاء :

– أين العيد يا أماه ؟ أين عمي شريف وخالي حسين ؟

قلت لهم :

– إذا لم يأت العيد فلنذهب إليه نحن .

أخذتهـم وذهبنـا إلى هنـاك . وجدناهـم .. لكننـا لم نجـد العيد لديهـم . الـكل مشـغول بمشـاكله والعيـد أصبح بالنسـبة لهـم ترفا ومضيعة للوقت.

عدنا إلى البيت ..تملؤني الحسرة ودموع الأبناء تهتف بي :

- أين هو العيد ؟

شعرت أن الصورة التي ظللت أرسمها في مخيلة أبنائي قد تشوهت مثلما ضاعت معالمها في مخيلتي . لا . لابد أن أحافظ عليها. ليس في أذهانهم فحسب وإنما في ذهني أنا أيضا . نزلت مسرعة إلى الشارع . اشتريت بعض اللعب والهدايا علقت عليها بطاقات بأسمائهم وتركت العنوان . عندما صعدت إلى المنزل وجدتهم مازالوا يبكون :

- أين العيد ؟ نريد العيد ..

دق جرس الباب . تعلقت عيونهم بالباب . أسرعوا نحوه . ليطالعهم عامل المحل يحمل الهدايا من عمهم شريف وخالهم حسين. وارتسمت على وجوههم الفرحة وراحوا يصيحون في سعادة :

-لقد جاء العيد.. جاء يا أماه .

كانت هذه هي المرة الأولى التي أكذب فيها ، لكنها كذبة بيضاء رسمت الفرحة على وجوه الأبناء وأبهجت قلوبهم ، حتى أنا صدقتها وظلت صورة العيد كما رسمتها في أذهانهم وقلوبهم «صورة طبق الأصل».

السوار الذهبي

أنيقة .. جميلة .. مازالت تحتفظ بريها ونضارتها بالرغم من أنها تجاوزت الخامسة والأربعين .. من يراها لا يمكن أن يعطيها سنها الحقيقي .. وكثيرا ما يختلط الأمر على الكثيرين عندما يشاهدونها سائرة مع ابنتها الطالبة الجامعية فيظنون أنها شقيقتها .. هكذا كان انطباع كل من يراها ، وإذا سألتها إحداهن عن سر جمالها النضر تقول :

– يا جماعة ليس في الأمر سر وإنما هو صفاء القلب والصدق مع النفس وراحة البال ، فالوجه لا يعرف الخداع لكنه يظهر بأمانة ما يخبئه القلب ..

تسكت قليلا ، ثم تضيف بعد إطراقة :

– لا تحسبنني خالية البال أو بعيدة عن الأحزان ، فأنتن تعلمن

جيدا أني ترملت مبكرة ، ولم أتزوج بعد زوجي المرحوم . رافضة كل من تقدموا لي وتحملت المسئولية حتى صارا في الجامعة ..

هكـذا كانت مديحة ، أو كما كانـوا يدعونها مدام «ميمي» امرأة مـن الطـراز الأول .. فهي سـيدة أعـمال ناجحة حيث تعمـل مديرة للعلاقـات العامـة بإحـدى الـشركات ، وأم رؤوم تحرق نفسـها من أجل ابنيها عصام وهدى ، أول من يسـتيقظ في البيت وآخر من ينام فيـه..، وفـوق ذلك سـيدة مجتمع ممتـازة .. فمنـذ اختيارها في مجلس إدارة النـادي أدخلـت فيه عددا من الأنشـطة الهامـة لم تكن موجودة مـن قبل ولم تخطر على بـال أي من الأعضاء الآخرين ، فصارت محط أنظار الجميع ..

اسـتيقظت مبكـرة كعادتهـا مع أنـه يوم إجازتهـا .. أدركت أن وقتـا طويلا قد مر دون أن تذهب إلى النادي.. ارتدت ملابسـها على الفـور اختارت زيا يناسـب بداية الربيـع، لم تنس أن تتحلى ببعض ما لديها من حلي مع حفاظها على البساطة وعدم التكلف ، وهذا ما كان يزيدها جمالا وحيوية ..

قوبلت مديحة بثورة عارمة اختلط فيها الترحاب بالعتاب لطول غيابها . فراحت تبرر قائلة :

– ما منعني عنكم غير الشديد القوي ..

صاحت أشجان بسرعة :

- أكيد الأولاد ..

ردت مديحة وهي تجلس بينهن :

- معك حق يا أشجان .. امتحانات الأولاد أخذتني من كل شيء حتى من نفسي ها.. ما أخبار النادي ؟

انطلقت كاميليا مستمرة في ثورتها :

- فاتك نصف عمرك .. في الأسبوع قبل الماضي أجريت مسابقة لأجمل تسريحة شعر ..

ضربت المنضدة بيدها :

- يا خسارة .. ومن الفائزة يا ترى ؟ ..

هزت كاميليا رأسها وراحت تداعب خصلات شعرها بأناملها وهي تعقب :

- أخجلتم تواضعنا ..

قبضت مديحة على خصلة من شعرها وقالت مداعبة:

- آه لو كنت موجودة في هذه المسابقة ..

صاحت ثريا:

- أنت دائما يا مديحة حظك في رجليك .. جهزي نفسك للمسابقة القادمة ..

قالت في سخرية :

– أرجو ألا تكون مثل المسابقات السابقة .. أجمل حذاء وأجمل دبوس شعر وأجمل حقيبة يد ..

– لا .. هذه المسابقة أثقل وأهم بكثير .. نحن نريد أجمل سوار ..

كانت المتحدثة كاميليا ، ثم أضافت في محاولة لإغاظة مديحة:

– أقترح عليك يا حبيبتي أن تنسحبي من الآن .. لأنني أعد لكم مفاجأة حقيقية فأجمل سوار عندي في البيت أحضره لي أخي في الشهر الماضي وهو عائد من الهند .. لو رأيتموه سيغمى عليكم ..

هزت مديحة رأسها في تحد :

– وأنا قبلت التحدي .. وأرى ألا نلتقي حتى يحين موعد المسابقة، لكي لا يبوح أحد بما لديه من سوار ..

– اتفقنا ..

قلنها جميعا في تحد .. وانفض الجمع وكل منهن يفكر في السوار الذي سيذهل العقول والألباب ..

عادت مديحة إلى البيت على عجل ، وهي تشعر بسعادة غامرة.. فقد تذكرت على الفور سوارها الذهبي النادر الذي أهداه إياها زوجها المرحوم .. كان قد اشتراه من مقتنيات أحد القصور القديمة بباريس ، فهو يعد بحق تحفة فنية رائعة ، علاوة على قيمته الأثرية ..

فتحت خوان الملابس .. أخرجت علبة قطيفة حمراء علاها غبار السنين .. تذكرت آخر مرة ارتدته في حفل تكريم المرحوم حمدي.. كادت العيون تخرج من محاجرها عليه .. اغرورقت عيناها بالدموع.. مسحت بيدها دمعتين انحدرتا على خدها .. أطلت إلى السوار وارتسمت على شفتيها ابتسامة ثقة .. مهما بلغ سوار كاميليا أو غيرها فلن يصل بأي حال من الأحوال إلى روعة وأبهة هذا السوار.. أنا الفائزة بلا أدنى شك ..

هكذا حدثت نفسها بصوت مسموع ، ثم أسرعت إلى الهاتف.. التقطت السماعة .. أدارت قرص التليفون وانتظرت لحظة :

– آلو .. عزت .. أنا مديحة .. الله يسلمك يا عزت .. مشاغل والله .. اسمع يا عزت أريدك أن تأتيني حالا .. أيوة نفس الفيلا .. سأنتظرك.. لا تتأخر .

وضعت السماعة ، ثم ألقت نظرة متفحصة على السوار .. أعادته بعد ذلك إلى مكانه الأثير داخل العلبة القطيفة .. راحت تزرع الحجرة جيئة وذهابا في قلق .. أمسكت بالعلبة ثانية وأخرجت السوار للمرة العاشرة أو العشرين ..

ما أن سمعت جرس الباب حتى طارت إليه وهي تصيح :

– لم تأخرت يا عزت ؟ ..

دخل عزت وهو يحمل حقيبة سوداء فاخرة :

– مسافة السكة يا هانم ..

قادتـه إلى حجرة الجلـوس ، وبعد أن جلس صاحـت وهي تنظر إلى الحقيبة :

– يبدو أن معك أشياء جديدة ..

صاح وهو يفتح الحقيبة :

– تفضلي شاهدي بنفسك ..

جالـت بعينيها بين أطقم المجوهرات التي تراصت بانتظام داخل الحقيبة ، ثم أغلقت الحقيبة في غير اهتمام وصاحت :

– مش قد كده ..

اعتلت أمارات الدهشـة وجه عزت الجواهرجي ، كاد يحتج لولا دخـول الخـادم تحمل صينيـة العصـير ، تناولت مديحة منهـا الصينية وصرفتها بإيماءة ثم قالت محدثة عزت :

– عزت .. هل تذكر سواري الذهبي ؟

– طبعا يا هانم طبعا .. التحف النادرة لا تنسى بسهولة.

أريـدك يـا عزت أن تنظفـه وتعيد صقله ، فـإذا كان في حاجة إلى لمساتك الفنية فلا تبخل عليه..

– أنا في خدمتك يا هانم ..

باتت مديحة ليلتها لم يغمض لها جفن .. وراحت تتخيل السوار وهو يبرق في عيون الحاضرين ، لم تكن عابئة بالكأس ولا بالفوز في المسابقة بقدر ما كانت تحلم بلحظة إعجاب تراها على وجوه الموجودين ..

انتفضت في فراشها وأسرعت إلى التليفون :

– آلو .. عزت .. نسيت أن أخبرك أن السوار به فص سقط ، أرجو تثبيت آخر غيره ..

طمأنها عزت إلى أنه اكتشف سقوط الفص وقد قام بتثبيت فص جديد مكانه ، بل إنه سوف يسلمها إياه كأنه جديد ، ومع ذلك لم تهدأ مديحة . كل حين وآخر تفزع إلى الهاتف :

– آلو عزت .. أرجو أن تركب للسوار سلسلة صغيرة ومحبس أمان..

– عزت .. لا تنس الياقوتة الحمراء التي حدثتك عنها المرة السابقة.. كما قلت لك تتوسط السوار وتحيط بها فصوص من الألماظ الحر .. الحر يا عزت.

– عزت نسيت أن أخبرك بألا تطلع إنسانا بأمر السوار .. دعه سرا بيننا..

وبالرغم من التكتم الشديد الذي فرضته مديحة ، فلم تستطع أن تمنع تسرب الخبر إلى المتنافسات في النادي .. فقد عرف الجميع أن مديحة تقوم بإعداد سوار للتقدم به إلى المسابقة .. ولم يكن لهن حديث إلا عن سوار مديحة الذي سيذهل العقول والألباب ..

وضعت مديحة سماعة التليفون بعد مكالمة سريعة مع كاميليا التي طلبتها لتخبرها أن موعد المسابقة غدا ، وهي في الحقيقة كانت تبغي معرفة معلومات عن سوارها الذهبي الذي ستظهر به غدا في المسابقة ، لم تعطها مديحة أية معلومات وأخبرتها أنها تعلم مسبقا موعد المسابقة وليست في حاجة إلى تذكرة وراحت تتأمل السوار أمامها بإعجاب شديد وهي تضحك .. انتبهت مديحة على دخول ابنها عصام الحجرة مطرقا .. أغلقت علبة السوار وصاحت منزعجة:

- عصام .. ماذا بك ؟

- لا شيء يا ماما ..

قال عصام هذا وهو مطرق في الأرض زائغ العينين ، تتبعه أخته هدى لا تقل عنه انزعاجا :

- ماذا بكما .. تكلما ..

تكلمت هدى وهي تسترق النظر بين أمها وأخيها :

– الحقيقة يا ماما .. عصام يفكر في الهجرة إلى كندا ..

صاحت الأم معترضة :

– لا .. أنا لم أضح بشبابي وعمري ، وأعلمكم أفضل تعليم حتى تتخرجا من كلية الطب وفي النهاية تتركاني وحيدة ..

تكلم عصام بصوت يائس :

– كلية الطب ؟ .. ليتني تعلمت صنعة أفضل من انتظار خطاب القـوى العاملة حتى ينتهي بي المقام في وحدة صحية مدرسـية براتب ضئيل لا يسد رمقا ..

قالت الأم :

– ألست مثل زملائك الذين تخرجوا في نفس الكلية ؟

– زملائـي .. منهم من تعين معيدا ، ومنهم من سـافر إلى الخارج ليكمل دراسته هناك ، ومنهم من فتح عيادة ..

– إذن فلتفتح عيادة .

رد عصام :

– العيـادة تحتاج إلى مصروفات كثيرة .. وأنا أعلم جيدا الظروف الصعبـة التـي نمر بهـا بعد وفاة بابـا .. بالرغـم مـن محاولاتك كي لا نشعر بها ..

أضافت هدي مؤيدة :

– كفـاك تضحية من أجلنـا يا ماما .. دعينا نعتمد على أنفسـنا .. أنا تسـلمت اليوم خطـاب القوى العاملة سـأعمل مشرفة صحية في إحـدى الحضانـات .. أما عصام فدعيه يسـافر ، فقـد يكون حظه في الخارج أفضل من حظه هنا ..

صاحت الأم في اعتراض وقد لمعت في عينيها دمعتان :

– لا يمكـن أن ينجـح عصام هناك إلا بعـد أن ينجح هنا .. يجب أن يفتح عصام عيادته .. وأنت أيضا يا هدى سوف تكون لك عيادة لعلاج الأطفال بالإضافة إلى عملك في الحضانة ..

صاحا معا في دهشة :

– عيادتان دفعة واحدة .. نحن في حاجة إلى ثروة ..

ضمتهما مديحة إلى صدرها وهي تقول في حنان :

– لا تحملا هما .. إنني أرى أمامي الآن طبيبين ناجحين ، أستطيع أن أفخر بهما أمام الجميع .. هذا هو اليوم الذي أنتظره من زمن ، وها قد تحقق .

قبلاهـا بحـب وهما يدعوان لها ، راحـت مديحة ترمقهما حتى انصرفـا ، ثم مسـحت دمعتـين انحدرتا عـلى خديها رغـما عنها .. امتـدت يدهـا إلى الهاتف .. أدارت قرصه .. انتظرت لحظات ، ثم صاحـت:

- عزت .. تعال حالا .. أريدك في أمر هام ..

مساء اليوم التالي .. احتشد النادي بالمدعوات وقد تلألأت أيديهن وصدورهن بالأساور والمجوهرات .. وقد أعلن عن بدء المسابقة .. وراحت الواحدة تلو الأخرى تعرض سوارها ، بينما كن جميعا يترقبن في شغف وشوق صعود مديحة على المنصة لتعرض سوارها ، لكن مديحة لم تصعد .. ظلت جالسة في القاعة وسط المدعوات ، عن يمينها ويسارها جلس ابناها عصام وهدى .. لم يبق سواها .. حتى صاحت كاميليا :

- مديحة .. أين سوارك ؟

تحسست مديحة بيد مرتعشة موضع سوارها ، وقد ارتسمت علي وجهها ابتسامة واثقة ، ثم أحاطت بذراعيها ابنها وابنتها وقالت:

- هذان هما قرطي وسواري ..

علا التصفيق وعانقها الجميع .. بعد قليل أعلنت نتيجة المسابقة وكانت مديحة هي الفائزة بأجمل سوار .

العوض

تـدور وتـدور ، تحلق في الفضاء العريـض ، تغرد بصوت عذب، ترفـرف بأجنحتهـا الرقيقـة ، تصنـع لنفسـها عالمًـا خاصا .. نسـمة نديـة تتهـادى في هيام ورقة من شـجرة إلى شـجرة تداعـب الأوراق والأغصـان كراقصـة باليـه محترفة إذا لامسـت جمادا تـدب فيه بربق الحياة وإذا صافحت نبتا لا يملك إلا أن يرقص معها ويغرد مثلها .

هكـذا قـدر لها أن تـأتي إلى الوجود مختلفة عـن كل أطفال الدنيا ، لم يرحـب بها أحد ، الجميع كانوا ينتظـرون ولدا وعندما جاءت هي انفجرت الأم باكية وهي تزف إلى زوجها الخبر المشئوم :

- بنت .

- اللي يجيبه ربنا كويس.

- كنت أتمنى أن أنجب لك ولدا عوضا عن الذي راح.

- كل شيء قسمة ونصيب .

وتركزت عيناه على صورة ابنه الفقيد المعلقة فوق رأس الأم كأنه يقول له كان عندي أمل أن تعود . وسمع صوتها يقول بصوت أشبه بالنحيب:

- لم يعد أكثر من مجرد صورة معلقة على الحائط .

انتبهت على صوت العوض أو بالأحرى تلك الوليدة الصغيرة التي جاءت في غفلة منهما ، ماذا أرضعك الآن الهم والحزن والنكد؟

لم تهتم الأم بإحضار ملابس للبنت فقد كانت كل الملابس التي أحضرتها ولادي . كأنها كانت واثقة من أنها ستنجب ولدا . ووجدت الأنثى الصغيرة نفسها داخل ملابس الأولاد . تذكرت الأم بعد أيام أنها لم تختر اسما لمولودتها ، ربما لأن قائمة الأسماء التي اختارتها لذكور ، ومن بينها الاسم القديم الذي كان يحمله الاسم الفقيد . فأطلقت على ابنتها أي اسم جاء على مخيلتها ، وكما ولدت منزوية عاشت منزوية في ركن قصي من البيت لا يلتفت إليها أحد ولا يشعر بوجودها كائن من كان .

لم يشعر أحد بجمالها الملائكي ولا رقتها ولا عذوبتها ، فلم يكن أحد يهتم بها ، إذا غابت لا تجد من يبحث عنها ، وعندما تحين ساعة النوم كانت تنزوي عن الأنظار في أي ركن يسمح باستقبال جسدها الصغير فتلوذ به حتى الصباح .

ذات يـوم دخلت على أمها وهي في حالة من الذعر لاحظت أمها عليها ذلك فتعجبت :

– ماذا بك ؟

لم تكـن الأم تـدرك أن ابنتها تركت مرحلة الطفولة وأدركت فترة المراهقـة ، وأشرفـت على طـور الأنوثة ، وأن هنـاك تغييرات جديدة طرأت على ابنتها ، ضمتها الأم إلى صدرها ، مسحت العرق المتصبب على جبهتها ، راحت تتطلع إلى وجهها ، لم تدرك أن ابنتها جميلة سوى اليوم . طمأنتها الأم أنها كبرت وأصبحت فتاة صغيرة .

لكـن النزيـف لم يتوقف ، لم تجد الأم بدا من الذهاب إلى الطبيب . طمأنها الطبيب هو الآخر بابتسامته المعهودة :

– ألسـت امرأة وتفهمين ما حدث لابنتك هذا أمر طبيعي يتكرر كل شهر .

مـر شـهر ومـازال النـزف مسـتمرا وتبـدل الجـمال إلى شـحوب واسـتحال الجسـد الأنثوي النابت إلى شـبح ضامر ممدد بلا حراك لا تسـمع في الغرفة سوى أنفاس لاهثة تتلاحق . تذهب الأم إلى طبيب آخر ، ما أن يفحص الفتاة حتى تعلوه نظرة قلق :

– لماذا تأخرتم حتى الآن ؟

بدأ يصدر أوامره :

جهزوا المحاليل ، علقوا أكياس الدم ، أعدوا العلاج الكيميائي.

تـضرب الأم كفا بكـف . هل كانت تحلم طول هذه المدة . ما هذا الصـوت الذي يـتردد في صدرها ، نفس الحشرجة التي سـمعتها من صغيرها وهو يموت منذ اثني عشر عاما . تجري هنا وهناك تستغيث بالطبيـب والممرضات حتى بعمال المستشـفى ، كان الـكل يمر يلقي نظرة يائسة وينصرف .

تنظـر الصغـيرة إلى عينـي أمهـا وترسـم بصعوبـة ابتسـامة بريئة وتهمس :

- أمي قبليني ..

تضمهـا الأم إليها وتغرقها بالقبلات . تشـعر أن شـيئا قويا يخرج منها . الجسـد الدافئ أصبح باردا كالثلـج ، العينان النجلاوان غارتا وسـكنتا في لحاظهـا ، الابتسـامة العذبة ذابت فوق شـفتين ذابلتين . سكتت الأنفاس إلى الأبد.

تنظر الأم إلى ابنتها وتصرخ :

- سامحيني يا ابنتي . عليه العوض ومنه العوض .

البصقة

وجه ذابل نحيـل تعلوه صفرة الموت .. عينان غائرتان .. تحيطهما هالتان سوداوان .. جسد ممد بلا حراك .. قدمان متيبستان .. ذراعان ألقيتـا إلي جواره وقد ازرقتا لكثرة الحقن التي نشـبت أنيابها في ذلك الجسد النحيل ..

من الصعوبة أن يتبين أحد إذا ما كان على قيد الحياة ، أم أنه أفل مع أفول شـمس ذلك اليوم ، لولا صدره الـذي يعلو ويهبط في تؤدة وبطء شديدين مصحوبا بصوت مكتوم كأنه آت من أعماق بئر قديم نضب ماؤه منذ قرون عديدة ..

نادي على زوجته وكأن أنفاسه أبت ألا تتوقف إلا إذا حضرت ورآها ولو للمرة الأخيرة ..

جلست إلي جواره وهي تنظر إليه بعينين دامعتين ولسان يلهج بالدعاء وقلب يتوسـل ألا يتركها ويمضي إلي حال سبيله .. فمنذ أن

فتحت عينيها علي الدنيا وهي تراه أمامها . ابنها المدلل وحبيبها الوفي وزوجها الذي يملأ حياتها دفئا .. كانت تعرفه أكثر من أهلها جميعا. فهو الأب والأم والصديق والحبيب ، بل هو الحياة ذاتها ..

حانت منه التفاته غير إرادية إليها فرأي عينيها الدامعتين ، سحب يده بصعوبة بالغة .. حاول أن يمسح دموعها المنهارة علي خديها فلم يستطع .. سحب يدها .. لثمها بشفتين ذابلتين باردتين ازرقتا حتي بللت دموعه يديها .. احتضنته بشوق كل السنوات الماضية ولهفتها عليه من أن تفقده إلى الأبد ..

راح وجهه يتصبب عرقا .. ازدادت شفتاه زرقة .. أسرعت بتجفيف العرق ، ذكرها وجهه بذلك اليوم الذي سقط مغشيا عليه علي أثر مكالمة تليفونية من مجهول .. يخوض فيها في عرض ابنته، ويهدده بفضحها، لم يحتمل الرجل ومنذ ذلك اليوم لم تنتصب له قامة.. لم تره طيلة حياتها يعاني من شيء كما رأته في ذلك اليوم . هذا الرجل القوي المارد الرقيق الحاني بإشارة من إصبعه تقوم الدنيا ولا تقعد .. تنجز أعمال ، وتذوب خلافات ، وتصفو قلوب كان قادرا علي الخروج من كل المآزق إلا هذا المأزق لم يستطع الخروج منه .

لم يخر لأحد أبدا إلا لله .. خر مغشيا عليه باكيا منتحبا .. لم تكن تظن أن يقع بهذه البساطة وتلك السرعة .. كانت دائما علي يقين من أنه أقوي من كل شيء حتي من المرض نفسه ، ولكن كان الموت اقوي منه وأسرع سبيلا ..

نظـر إليهـا بطـرف عينيـه نظـرة انخلع لهـا قلبها .. أهـي نظرة اسـتعطاف لحالـه ، أم نظرة اسـتماتة تنذر بدنو الأجـل ؟ أم أن الموت يطـل مـن العالم الآخر مـن خلال تلـك العينيين المحتضرتـين ؟ .. لم تسـتطع أن تحول عينيها عن ذلـك الوجه الممتقع .. تزداد امتعاضات وجهه .. الله وحده يعلم بما يعتصر به قلبه المريض ..

– آه لو تنطق يا حبيبي لو تبوح بمكنونات نفسك ..

يـا لقسـوة القلـوب عندما تتحـد في شرها لتقتـل بريئا لترضي نوازع شرها ..

ظلـت عيناها معلقتان علي وجهه ، ويداها في يده تستشـعر نبضه الضعيـف لتتأكد أنه مازال يشـعر بهـا ويراها .. أنـه لا يزال علي قيد الحياة ..

دق جـرس البـاب .. اندفعت ابنته إلي غرفته والدموع تنسـاب منهمـرة عـلي خديها .. لم يشـعر بوجودهـا .. ازداد نشـيج بكائها .. رفعت وجهها إلي السـماء تدعـو الله لم تدع الله في أي وقت مضى بهذا الخشوع وهذا الصدق كما دعته الآن ليشعر بوجودها .. فتح عينيه.. رآها .. أخيرا نطق اسمها :

– سلوى ابنتي ..

احتضنـت كفه الضعيفة كفها بصعوبة وبقوة حبه وتعلقه بها..

وبقـوة أمـل تـذروه الريـاح في أن يبقي معهـا .. حـاول أن يضمها .. تحسسـت قدميـه .. باردتـان كالثلـج .. جبهتـه تتفصـد عرقـا .. حشرجة صدره تزداد .. وكأن شـيئا مجهـولا يريد الخروج من جوفه فلا يسـتطيع .. نفـس حائر .. يروح ويجيء يحـاول أن يخرج من عنق الزجاجة .. رحماك ياإلهي ..

طلبـت إليـه جرعة ماء .. أسـندت ظهره .. حاولت أن تسـقيه ولكنه سـعل سـعلة قوية وبصق .. تقيأ كل ما في جوفـه الماء والهواء والدماء أيضا .. تقيأ بحرا من الدماء .. لم يعد بداخله شيء ..

انطفـأ بريـق عينيه .. زالـت امتعاضات وجهه وزرقتـه .. ذهبت تلك الهالات السـوداء أسـفل عينيه .. برد القلب المحترق سـكنت الأنفاس اللاهثة ..

سما على كل النفوس الوضيعة فصار عاليا . أعلي من كل البشر .. وتركنا نحن في التراب ..

القوقعة

التفت حول نفسها ، دفنت رأسها بين ذراعيها ، تركت السنون بصماتها علي وجهها ورقبتها وكفيها المعروقتين ، أما عيناها فربما اضيقتا بفعل السنين وبفعل النظارة السميكة التي تثبتها عليهما . ويبدو أنها ترتديها منذ سنوات طوال للهالات التي تركتها علي أرنبة أنفها وبين عينيها ..

حذرني الجميع من الاقتراب منها وإلا ستنفجر كأنها قنبلة موقوتة . أخذت أسترق النظر إليها عن بعد .. أخيرا رفعت رأسها بعد أن ظلت منكفئة أكثر من ساعة علي مكتبها لدرجة أني ظننتها والمكتب سواء ، أو أن المكتب قد تحور إلى محارة تكورت داخله .

ذات يوم جاءت متأنقة على غير عادتها .. رحنا ننظر إليها ، ثم إلى بعضنا بعضا في دهشة واستغراب ، إلا أنني لمحت في عينيها نظرة تجمعت فيها كل لحظات الأسى والحزن في حياتها الماضية والمقبلة معا. مما زاد من دهشتنا .

عندما دقت الساعة الثانية قامت على الفور تجمع حاجياتها

وتنصرف .. لم تتكلم ، لم تبح بشيء .. كتومة كعادتها .. تتحرك بحساب ، تتنفس بحساب خيل إلي أنها تعرف عدد اللقيمات التي تزدردها ، وعدد الأنفاس التي تتنفسها .. هذه هي عادتها ولم نحاول أن نقتحم حياتها ونعرف ما يدور فيها .

في صباح اليوم التالي دخلت مكتبي وكالعادة كانت أول من حضر ووقع في كشف الحضور . وجدت قطعتي شيكولاته علي مكتبي عندما سألتها أجابت في تحفظ :

- خطوبة ابني حسام ..

- ربنا يتمم بخير

رحنا جميعا نهنئها ، ولا أدري لم شعرت أنها لم تكن سعيدة .. كنت اختلس إليها النظرات محاولة سبر أغوار بحرها الخضم ، وكلما حاولت الغوص لا أجد إلا ظلمة القاع فأظل على الشاطئ .

عرفت من زميلاتي أنها ليست المرة الأولي التي يرتبط فيها حسام ابنها وفي كل مرة تبوء الزيجة بالفشل.

لدهشتنا وجدناها بعد أيام قلائل تدخل علينا بوجه مشرق وقد بدت أصغر من سنها ، وعلمنا بعد ذلك أن هذه الزيجة أيضا قد باءت بالفشل .

اقتربت منها وكلي عزم وتصميم على تحطيم هذا الحصن الحصين الذي تختفي وراءه هذه المرأة، اكتشفت أنني لم أكن

وحدي التي أسترق النظر إليها فقد كانت تنظر لي هي الأخرى.. طلبت مني أن تأتي لزيارتنا بالمنزل كانت مفاجأة لي أن تطلبني لابنها حسام..

لا تقل عني أني مجنونة لكي أقبل زواجا بهذه الطريقة العجيبة ، فأنا لم أر حساما هذا وما رأيته من أمه لا يبشر بخير ، فكان شغفي لاقتحام حياة هذه المرأة وحصنها العتيد وراء قبولي الزواج من حسام.. وتزوجنا .. لكنني بعد وقت قصير اكتشفت أنني داخل القوقعة، بل ومحاطة بقواقع أخرى أشد غموضا من قوقعتي .. كانت حياتي معها أصعب من أن أقودها وحدي .. لم يكن لي فيها حق القيادة .. بل الانقياد .. لم يكن زوجي لي .. استطعت أن أفهم ذلك منذ أول ليلة .. فليلة عرسي قضيتها في المستشفي على أثر نوبة قلبية حادة أصابتها وظللنا بجوارها .. عرفت أنها فقدت زوجها في سن مبكرة فكان حسام بالنسبة لها الابن والحبيب والزوج ومن الصعب بل من المستحيل أن تتركه لامرأة أخرى..

حاولت أن أكون لها الابنة البارة لكنها كانت تشعر دائما أنني خصمتها اللدودة . اشتد عليها المرض منذ زواجنا. الأزمات تعصف بها .. حالتها الصحية تزداد سوءا .. وشعرت بالاختناق لم أعد أحتمل أكثر من ذلك .. لا يوجد سوى حل واحد .. وتركت البيت في هدوء ..

لم تعترض هي ولم تحاول أن تصلح بيننا .. بل علمت أنها عوفيت واستردت صحتها بعد أن استعادت ابنها الوحيد من جديد .

تعسا لهذا الابن كم كان يتمنى أن يتخلص من هذا القيد كم حلم بالحرية ، ويالها من حرية ، فمعناها الموت لأمه . ومن يتمنى لأمه الموت من أجل حبها له . يشعر بوخز ضميره . فيعود منكسرا.

وفي الليلة التي راوده فيها هذا التفكير البغيض لم ينم .. أصر أن ينتظر موعد الدواء دخل غرفتها .. حاول مداعبتها رفع صوته :

أمي ..أما زلت نائمة ؟

لم يأته الجواب .. رفع عنها الغطاء وجدها متقوقعة في فراشها وقد أحكمت الغطاء الصدفي عليها دون حراك . بكاها كثيرا .. مرت أيام وشهور .. حاول أن يفعل كل ما تمناه من قبل . يمكنه الآن أن يبدأ من جديد .. فالفرصة سانحة الآن لكنه لم يستطع .. قرر أن يقوم في اليوم التالي ويذهب إلي زوجته ويردها مرة أخرى إلي عصمته .. كان سعيدا بهذا القرار .

دخل إلي صومعتها ، اندس في فراشها ، تقوقع في مكانها ، أحكم عليه الغطاء الصدفي ، ولم يبد أي حراك ..

الخالة ريحانة

يـا لصوتها الشـجي .. تشـعر وأنت تسـتمع إليه كأنـه خارج من أديـم الأرض ، تلمس في رنتـه رنين صخور الصحراء وهي تصطك ببعضها ، كأن الجبال صبغتها بصبغتها الداكنة فصارت جزءا منه .. لكنني اسـتطعت أن أستشـعر هذه الترنيمات الحزينة الشـجية ، كأن كلماتهـا التـي لم أفهم معناها هـي عزف للحن حزين عـلى تلك الآلة التي تقطع نياط القلوب .. الناي .. امتزج نشـيجه مع صوتها الحزين ليعزفا معا لحنا واحدا ..

هذه هي (الخالة ريحانة) بوجهها الأسـمر سـمار الجبال الشاهقة التي تحيط بنا وقد لفحتها أشعة الشمس ، وغريب أن تلفح الشمس وجهـا لا يـرى كلاهمـا الآخـر إلا عابـرا .. ربـما تكون الشـمس قد تسـللت خفيـة إلى حجرتهـا لتنصت إلى صوتها الشـجي ، أو لتشـم زهور الريحان ..

أمـا الخالـة ريحانـة .. وهذا ليس اسـمها الحقيقـي ، إنما أطلقناه عليها لزهور الريحان التي تخفيها خلف أذنيها .. تميزت بهذه الرائحة التي تعبق المكان فتملأ نفوسنا انشراحا وإقبالا على العمل ، عرفناها بهـا منذ أن تدخل من باب المستشـفى التي أعمل بهـا في تلك المنطقة النائية ، فما أن تأتي في الصباح لتنظيف مكاتبنا حتى يفوح عطر الريحان ليتضوع بعرفه المكان ..

كيف حالك يا عواطف ؟

هكـذا كانـت تناديني « الخالة ريحانة « بـلا ألقاب ، بالرغم من أن جميع العاملين بالمستشـفى من أصغر عاملة إلى المديرة لا ينادونني بغـير « الدكتورة «.. إلا الخالة ريحانة ، واعتدت منها ذلك .. فزهور الريحان تشفع لها ..

صـارت الخالـة ريحانـة جـزءا منـا ، بـل صرنـا جـزءا منهـا .. حتى شـكواها المتكـررة التي تبثها إلينا من خـلال ترانيمها وأغنياتها الحزينة.. كنا نلتف حولها ونسـتمع إليها في شغف وإعجاب .. فتارة الصداع اللعين الذي لا يفارقها .. وأخرى بذوراتها « أبناؤها « الذين تزوجوا وفارقوها .. وثالثة تنعي الزمن الذي ولى ومر من أمامها دون أن تدري به .. تاركا آثاره القاسـية على شـعرها الذي وخطه الشيب ولم تفلـح الحنـاء في إعادته كما كان .. وجهها الـذي أصابه التجاعيد أسنانها التي سـقطت قبل الأوان كأوراق الخريف الذابلة ، وتحايلت

عليها بأسنان ذهبية كانت تشاركها الابتسام إذا ابتسمت ، فتلقي بأشعة ذهبية على وجهها النحيل فتحيل وجهها الشاحب إلى لون النهار تحت أشعة الشمس ..

– ماذا بك يا خالة ريحانة ؟

سألتها ذات يوم عندما وجدتها تجلس في حجرتها الصغيرة بالمستشفى مكفهرة على غير عادتها ، واضعة إحدى يديها على خدها والأخرى تمسك بزهور الريحان كأنها تبثها شكواها .. هزت رأسها في أسى وقالت بصوت حزين

– أصعب شيء على الإنسان يا ابنتي عندما يجد المياه تهرب من بين يديه قطرة قطرة دون أن يكون له أي إرادة للاحتفاظ ولو بقطرة..

– كل إنسان لابد وأن يأخذ نصيبه غير منقوص يا خالة .

– أجل .. ولكن ماذا تقولين في حصان عجوز يريدون أن يضربوه بالرصاص لا لشيء إلا أنه شاخ وكبر وأصابه العجز ..

تسكت قليلا لتقول بعين دامعة :

– عندما تشعر الأفيال بدنو أجلها فإنها تذهب إلى المقبرة بأقدامها..

– أول مرة أراك تتحدثين بهذه الطريقة .. لا تكوني متشائمة يا خالة.. هيا فضفضي .. قولي ما الذي يحزنك ..

لا داع لأن أنبش الجراح فتزداد اتساعا .. دعيها مغلقة على أصحابها ..

رحت أواسيها :

نحن الذين بأيدينا أن نذيب الأحزان ونخفف الجراح عن المرضى.. ألا نستطيع أن نعالج أنفسنا ..

- كيف يا ابنتي ومرضنا فينا .. إنه الزمن ..

- إذن فلنصادق الزمن بدلا من أن نحاربه .. نتصالح معه ونصالحه خيرا من أن نسبح ضده .. فليس بأيدينا العودة إلى الوراء.. كذلك لا نستطيع أن نوقف عجلة الزمن ..

وهل أحد يا عواطف يستطيع أن يوقف سريان الزمن .. إنه يجري مسرعا كالقطار الجامح ونحن وراءه لا نستطيع أن نوقف سريانه ولا يمكننا اللحاق به ..

ضممتها إلى وأنا أقول :

- خالة ريحانة .. لقد تعودنا على ابتسامتك الجميلة وصوتك الشجي.. أرجوك لا تحرمينا منهما ..

هزت رأسها وعادت تترنم بأغنياتها الحزينة ونحن نردد وراءها..

شيء مزعج للغاية أن يأتي يوم بدون الخالة ريحانة ، فقد تغيبت

في اليوم التالي وأدركنا جميعا أن السبب حالة الاكتئاب التي انتابتها بالأمس .. لكن أن يمر أسبوع كامل دون أن تحضر أو حتى تبلغنا. فبالتأكيد في الأمر شيء.

لا أدري ما الذي دفعني إلى الذهاب إليها ، لم أجد تفسيرا لهذا الهاجس الذي راح يلح على طول الطريق للبحث عن بيتها .. لعلها زهور الريحان التي كنت أشمها طول الطريق إلى بيتها ، وكأن الدرب يقودني إليها ..

لم أتعب في البحث عن بيت الخالة ريحانة ، فقد اكتشفت أنها أكثر شهرة من الطريق ومن الجبال ومن زهور الريحان .. وكنت طول الوقت أبعد عن مخيلتي مشهدا أخشى أن أراه ، وحمدت الله أن خيب ظنوني إذ فوجئت بالأنوار تملأ المكان كأنه عرس ، وأصوات غناء من الداخل تبينت منه صوت الخالة ريحانة تصيح في سعادة بصوتها المميز وبحتها الرخيمة .. كانت تعطي أوامرها لبعض الفتيات :

– هيا أسرعن .. ركبن الستائر وافرشن السجاد .. فقد أوشكا على الحضور ..

عندما التفتت ورأتني لم تصدق نفسها ضمتني إليها في ود فشعرت كأنني غرقت في بحر من الريحان ، ثم نزلت بي إلى الطابق الأرضي وفتحت إحدى الغرف وتقدمتني وهي تقول بفرح :

تفضلي يا عواطف .. هذه غرفتي ..

دخلت خلفها وأنا أتأمل حجرة نومها في دهشة وإعجاب معا ورحت أقول:

- لو لم تقولي لي إنها حجرتك لقلت إنها حجرة عروس في شهر العسل ..

ضحكت في مرح وقالت :

- هي فعلا حجرة عروس . فلم يمسها أحد حتى الآن ..

ثم أخرجت من دولابها علبة مجوهرات فتحتها أمام عيني وقالت :

- اشتراها لي زوجي بالأمس ..

- رائعة ..

ثم أخذتني سريعا إلى حجرة بالطابق العلوي . ونحن نصعد الدرج إليها سألتها :

- إنني أتعجب لك يا خالة ريحانة .. فامرأة مثلك رزقها الله بزوج له مثل هذا الذوق العالي وهذه الرقة الشديدة . وتمر باكتئاب ..

كنا قد وصلنا إلى الحجرة العلوية وفتحت لي الباب لأشاهد حجرة نوم تشبه تلك التي في الطابق السفلي تماما وسألتني :

- ما رأيك يا عواطف ؟ ..

- إنها مثل السفلية تماما ..

ضحكت ثانية وهي تعقب :

- أنـا التـي اخترت الاثنتين .. فكل شيء في البيـت من ترتيبي أنا ومـن صنعي أنـا هذا المفرش الذي على السرير مـن عمل يدي ، فهو يحـب اللون الوردي .. وأنا الذي رتبت له حاجياته في الدولاب بهذا الشـكل .. حتـى العـروس أنـا التي اخترتها .. شـابة حسـناء مهذبة وبنت ناس ..

- مبروك يا خالة ريحانة .. ربنا يتمم بخير

رحت أجول ببصري في الغرفة لأجد زهور الريحان تملأ المكان. ولاحظت أنني أنظر إلى زهور الريحان فضحكت قائلة :

- إنه يهوى الريحان أيضا ..

شاركتها الضحك وأنا أقول :

- من الطبيعي أن يهوى الريحان .. أليس ابنك ؟

انفجرت ضاحكة وهي تصيح :

- بل زوجي ..

رحت أحملق فيها غير مصدقة ، بينما راحت تقول :

سواء أردت أو لم أرد سيتزوج ، فليتزوج إذن بإرادتي أنا وبرغبتي أنا ، واشـترطت عليه أن يحضر لي مثلما سـيحضر لهـا وأنا الرابحة في النهاية ...

وراحـت ترقص وتغنـي وتزغـرد بانفعال .. ثم مـدت لي صينية الشربات :

تفضلي شربات الفرح ..

نظرت في عينيها فلمحت دموعا انسابت رغما عنها وسقطت على صينية الشربات ...

عربة القمامة

أخذ نفسا عميقا من سيجارته نفخها بقوة في الهواء لتحيطه غلالة من الدخان.. تذكر شيئا نسى أن يقوله لزوجته الغيور أثناء مشاجرة اشتعلت بينهما وهذا الأمر عادي بالنسبة لهما، فالمشاجرات بينهما لا تخمد أبدا.

اتهمته هي بالخيانة وعدم تحمل المسئولية.. شكك هو في تصرفاتها وفي المكالمات الهاتفية التي تأتي إليها حتى الخطابات التي تصل إليها.

فتح الباب بينما كانت تجلس في غرفة النوم مطرقة ساهمة وراح يقول:

– هناك شيء آخر يا ست هانم. أنا لست مسئولا عن تقديم تقرير يومي عن تصرفاتي.. هل سألتك يوما أين تذهبين؟ .. هل تلصصت على مكالماتك بين الحين والآخر؟ .. هل فتحت درجك الخاص وفتشت بين أوراقك؟ .. هل سألتك يوما عن مصدر الخطابات التي تصلك؟

باغتها بكل هذه الأسئلة التي لم تكن تتوقعها، نظرت له في حدة وأطرقت دون أن ترد.. صفع باب المكتب وراءه بشدة.. ظهر عليها الانزعاج لجملته الأخيرة وتساءلت فيما بينها وبين نفسها.

ترى هل يقصد شيئا بكلماته هذه؟ هل عثر حقا على الخطابات التي بدرجها لا تعتقد ذلك، فلو كان يعلم عنها شيئا لما توقفت المشاجرة عند هذا الحد.. امتدت يدها بسرعة إلى أحد الأدراج أخرجت حقيبة من الجلد فتحتها أمسكت بلفافة من الخطابات وهي تتلفت حولها لتتأكد أنه مازال في غرفته. فتحت باب الشقة وراحت تمزق الخطابات وتلقيها في سلة القمامة، ثم أغلقت الباب بسرعة.

كانت هناك عينان تراقبان عن كثب اشتركت مع أذنين تلصصتا لتلملم خيوط المشاجرة من بدايتها، وها هو مفتاح المشاجرة يلقى على بعد خطوات منها.

فتحت حسنية باب شقتها المواجه لشقة الأستاذ صبحي وأسرعت إلى صندوق القمامة وقبل أن تصل يدها إليه سمعت صوتا يتحرك صاعدا على الدرج هرعت إلى شقتها وأغلقت الباب بينما عيناها ملتصقة بالعين السحرية.

جاء زكريا الزبال ليحمل قمامة العمارة، نظر زكريا نحو الباب الذي أغلق على عجل وراح يهز رأسه في سخرية بينما يده تفرغ ما في السلة داخل جواله وراح يلقيه فوق ظهره ومضى نازلا وهو ينادي:

- الزبالة ..

انطلق زكريا بعربته المتهالكة كعمره، كأنها تتوارى خلف الزمن لا يظهر منها إلا أطلال تذكره بالماضي القديم.. تمتلئ بأكياس القمامة واضعا قدميه فوقها كأنه يضرب الدنيا بحذائه البالي لا يعبأ بالآخرين، فقد تعود ألا يجري وراء شيء ولا يشغل باله بأحد. فكل الأشياء ترتمي تحت قدميه.. تعلم زكريا الكثير خلال سني مهنته. تعلم أن يقرأ ما يدور بخلد أصحاب هذه القمامة.

عندما وصل زكريا إلى الخرابة التي يلقي فيها بقمامة الآخرين راح يفك الجوال بحرص خشية أن تفوح من داخله حكاية من الحكايات وقد ارتسمت على شفتيه تلك الابتسامة الساخرة الباهتة التي لا تعبأ بشيء، فليس هناك شيء مهم.. وليس هناك حاجة لأن يكتب على كل كيس رقم شقته واسم صاحبه، فكل كيس ينضح بما فيه، وحياة الناس ما هي إلا جوال يحوي قمامتهم. أمسك زكريا بكيس .. فتحه وهو يهز رأسه ويحرك إصبعه نحوه.

المهندس عماد.. أعزب يعيش وحيدا في شقة طويلة عريضة ورثها عن أبويه .. عرفه من كم زجاجات الويسكي والشمبانيا الفارغة وعلب الطعام الجاهزة فهو لا يستطيع أن يعد لنفسه كوب ماء.. ولا يتورع عن إلقاء بعض الملابس التي اتسخت حتى لا يحمل نفسه عناء تنظيفها.. إنسان بوهيمي.. حياته هي اللحظة التي يعيشها. يشبه تماما زجاجاته الفارغة.

ألقى زكريا بكيس القمامة بعيدا وسط الخرابة وتناول آخر.. نعم.. إنه هو تلك لفافة الخطابات وبعض الصور التي مزقتها زوجته حتى لا تصل يده إليها. يالها من خائنة.. تلك الأظرف ونفس الورقات لمحها زكريا في كيس المهندس عماد.. فهو أخطبوط كبير.. مع أنه صديق حميم لزوجها صبحي.

ها هي جمالات أرملة المحامي حامد فرغلي أجل.. كان له باع طويل في المحاماة.. رحل وتركها وحيدة متشحة بالسواد تاركا لها خمسة أبناء تزوجوا جميعا ولا يفكر أحدهم في أن يطرق باب شقتها ليسأل عليها.. اللهم إذا وقع أحد منهم في ضائقة مالية.. كيس قمامتها ينطق بالحزن كل ما يلقى فيه متشح بالسواد مثلها.

أما الأستاذ سعيد مرعي الذي يسكن في الطابق السفلي فهو موظف بالسكة الحديد.. لديه ثلاث بنات يعشن حياة الكفاف لا تجد في سلتهم ما ينم عن ترف أو أكلة دسمة.

أفرغ زكريا محتويات العربة من القمامة وراح ينطلق بها بعيدا يهتز رأسه مع هزات رأس الحمار الذي يجره.. يتسع فمه ليرسم ابتسامة أخذت تزيد شيئا فشيئا حتى صارت ضحكة عالية ترددت في الخلاء واشتركت مع نهيق حماره وهو يحمد الله على أنه إنسان بلا قمامة.

ثورة المرضى

بـرودة تـسري في أوصالي، ترتعد فرائسي لشـدة البرد، كأن مسـا كهربيـا يحتضنـني ولاأملك إلا أن أجمد مـكاني، وبالرغم من تعارفنا منذ سـنوات طويلـة إلا أننا لم نتآلـف فالصقيع والهجـير لا يلتقيان، وبالرغـم من كل النظريـات التي تؤكد تجاذب الأضـداد إلا إنني لا أؤمـن بهـا، الجاكت الوحيد البـالي الذي أملكـه لا يمنحني الدفء، حوائط المستشـفى الباهتة تزيد من بـرودتي، جدرانها المنهارة تذكرني بما يعتمل داخلي من انكسـار، الطعام المسلوق الذي يقدم لي كل يوم يشـعرني بتميع كل شيء من حولي، لا أسـتعذب شـيئا، ربما تعطلت لـدى حاسـة الذوق. كـم كنـت أتمنـى أن أتـذوق أي شيء، قفزت إلى ذاكـرتي الذكريـات البعيـدة وأنا صغـيرة كم كنت أتلـذذ بقطعة الشـيكولاته، كم أشـتاق إليها إلا أن السـكر اللعين يمنعني من كل

مـا أشـتهي، أحيانا أضج بكل شيء وأضرب بـكلام الأطباء عرض الحائط.

رحت أتساءل في حيرة:

– تـرى هـل ما زال أحـد باقيا على الحياة متمسـكا بها، أو قل هل هنـاك ما يسـتحق أن نحيا من أجلـه؟، إن الصراع الدائـر في الخارج لا يعنـي لي شـيئا البتة، كم اشـتقت لـدفء الأسرة والطعام ورائحة الشواء التي تنبعث من مطبخ أمي رحمها الله، قضيت أياما قاسية على أثر غيبوبة السـكر، واليوم يؤشر لي الطبيـب بالخروج، لا أرى فائدة من دخولي إلى المستشفى، أو الخروج منها فطابور هنا وطوابير هناك، الفرق الوحيد هو أن الطابور هنا إلي بيت الراحة مجاني.

عدت أدراجي إلي منزلي، كم كنت سعيدا يوم ظهرت القرعة، عرفـت بأنني من بـين الأفراد المخصص لهم، لم أصـدق نفسي عندما طالعـت بنفـسي العقـد ووقعـت عليـه، ذهبت للاسـتلام كل شيء معقول إلا شيئا واحدا، عندما أريد أن أدخل للاستحمام أو .... علي أن أذهـب للمبني المجاور لعـمارتي والدخول بتذكرة ثمنها خمسـون قرشا، عرفت حالات الجيران فالأستاذ صالح يعاني من سلس البول، فهو يضع كرسيا بجوار بيت الراحة وأحيانا يجلس داخله بالساعات حتى يستغل التذكرة، وأم أحمد سيدة بدينة تحتاج للذهاب لدورة المياه بشكل متكرر، أما أم مصطفى فهي سيدة مسنة، وأبو أحمد حالته مثل

حالتي تماما، مريضا بالسكر ،رحنا نجلس قبالة الحمامات ونتباحث الأمر، ترى كيف نحل هذه المشكلة نأكل ونشرب أم نمتنع ،لقد أصبح علينا أن ندفع ستين جنيها شهريا بواقع أربع مرات يوميا للدخول وبتنا نحلم بحل للمشكلة.

قررنا أن نكتب عريضة للمحافظ نطالبه باشتراك شهري مخفض للتبول.. إلا أن البعض اعترض راحت أم مصطفى تقول:

– لا .. أنا سيدة مسنة وأحمل شهادات طبية من الأطباء، ويجب أن أعفى نهائيا من تذكرة الحمام.

هتف أبو أحمد:

– يجب أن ينظر إلينا المحافظ بعين الرأفة ويسمح لنا بنصف التذكرة عن كل زيارة

رحت أعقب يجب أن تكون هناك مساواة بيننا وبين ركاب الأتوبيس والبوليس.

في اليوم التالي قررنا أن نخرج في مظاهرات للتعبير عن مطالبنا رحت أنظم المجموعات، هنا يقف من يطالب بإعفائه نهائيا من الاشتراك الشهري للتبول، هناك يقف من يطالب بنصف التذكرة أما من يطالبون بالمساواة مع ركاب الأتوبيس واستخراج أبونيه لدخول الحمامات يقفون في الوسط، قضينا طيلة الليل نكتب اللافتات واتفقنا

على المكان الذي ستتحرك منه المظاهرة حتى تصل إلي مقر المحافظة، ما إن أعلنت تباشير اليوم الجديد عن نفسها وبدأنا التحرك، انضمت إلينا أعـداد غفيرة فالبعض يظن أننا من كفاية، والبعض الآخر يظن أننا بعض العمال يطالبون بزيادة أجورهم وآخرون يظنون أنها دعاية لعضـو جديـد في المجلس، ومنهم طلبـة جامعيون يطالبـون بموعد للغذاء على جدول المحاضرات أسوة بما يتم في جامعات الغرب.

اختلطـت الجموع بعضها ببعض.. تداخلـت المطالب.. تحركت جموع الأمن تطلق القنابل المسـيلة للدمـوع وقبض على الكثيرين منا بتهمة الشغب وإثارة الرأي العام.

عدنـا مـن حيث أتينا كان هم من رجـع أن يحجز مكانه في العمارة المجـاورة حتى لو كانت التذكرة غير مخفضة وغير معفاة ليتمكن من دخوله الحمام سريعا.. عفانا وعفاكم الله.

مرارة المشمش

دق جرس التليفون . حاولت أن أقوم . أشعر أن هناك آلاما في كل مكان بجسدي .. تباطأت في الرد لعله يوقف رنينه المزعج رفعت السماعة . كانت أمي .. حاولت أن أتماسك فلم أستطع .. جاءت كلماتي متقطعة باردة تشوبها حشرجة مخنوقة .. وانفجرت في البكاء .

أكيد المخفي زوجك . عملها مرة أخرى . ولكنني أعود فأقول أنت التي اخترته فاشربي ..

كانت هذه هي لهجة أمي كلما اتصلت بي بعد مشاجرة مع زوجي . معها حق لقد حق علي العذاب طول العمر من أجل قرار اتخذته في لحظة طيش .. زواجي من هذا الرجل .. لم أندم علي شيء فعلته في حياتي كما ندمت علي زواجي منه صرت أبغضه من كل قلبي، تبدل كل الحب إلي شعور بغيض ربما أكبر من الكره ذاته .. غفرت له زلات كثيرة وفي كل مرة كنت أجد له المعاذير ، أما هذه المرة

رفعت يدي . تحسست خدي الأيسر . انهمرت الدموع رغما عني . سمعت طرقات علي الباب . ابنتي . أخفيت دموعي سريعا عنها . أحمد الله أنها كانت نائمة وقت الشجار .

– ماما .. ماذا بك ؟

– لا . لاشيء يا حبيبتي ..

وجدتها تقول :

لماذا يا أمي تتشاجران دائما ؟

– إننا لم نكن نتشاجر يا سلوى . بابا كان يحكي لي حكاية وارتفع صوته دون أن يدري . هذا كل ما في الأمر .

– وهل من يحكي حكاية لأحد يصفعه على وجهه يا أماه ؟

حاولت أن أبرر لها مرة أخرى فخانتني أعصابي وكدت أبكي ، فاحتضنتها بسرعة كي أخفي عنها دموعي وسمعتها تقول لي :

– لن أتزوج أبدا يا أمي .. سأعيش معك طيلة حياتي ..

تركتني سلوى وذهبت إلي حجرتها . شعرت أنني جرحت جرحا عميقا لقد تحطم كياني أمام ابنتي الوحيدة .. تذكرت حينها لوم وتأنيب أمي لي بضعف شخصيتي وإهدار كرامتي .. عادت الدموع تنساب من عيني، كيف أستطيع مواجهة ابنتي بعد اليوم؟ وكيف أصبحت صورتي في عينيها بعد ما حدث ؟ كيف أحول

تلـك النظرة التي في عينيها من عطف ورثاء لحالي إلي إعجاب وحب بشخصية أمها ؟ لا سامحه الله . لقد كسر اليوم شيئا عظيما بداخلي ..

فتحت دولاب ملابسي. رحت أجمع كل حاجياتي . وقع بصري على صورة زفافي بجوار السرير ، امتدت يدي إليها ، رفعتها إلى أعلى لكنني تراجعت امتدت يدي إليها ثانية ، لم أشعر إلا وأنا ألقي بها تحت قدمي محطمة إياها ..

بينما أضع حاجياتي في الحقيبة سيطرت على مشاعري ابنتي سلوى.. عندما ستعيش بعيدا عن بيتها الذي نشأت فيه ، ستفقد الأب الذي تحتاج إليه لن أستطيع مهما فعلت أن أعوضها عن أبيها.. سيظل هناك شيء ما بداخلها مكسورا إنه الشرخ الذي ألم بقلبي الليلة سيمتد إلى قلبها . ما ذنب أبنائنا أن يدفعوا ثمنا لاختياراتنا الخاطئة .. لا .. لن أخطئ مرتين .

عدت أفض الحقيبة من جديد أعدت كل شيء مكانه . المنزل مرتب .. سلوي في غرفتها تستذكر دروسها قمت بوضع شريط موسيقي بالكاسيت .. حاولت معالجة صورة زفافنا التي كسرت جمعت أشلاءها المبعثرة عاد الإطار كما كان ولكن من يدقق في الصورة يكتشف أن بها شرخا عميقا حاولت معالجته فلم أستطع تركته ربما يلتئم مع الزمن .

هاهي دقات الساعة معلنة انتصاف الليل وضعت العشاء على

المنضـدة أصرت سـلوى أن تنتظر أباها لنتناول طعام العشـاء معا .. جلسـنا ثلاثتنا .. توسـط المائدة طبـق الفاكهة المحبب لـه أطلت منه حبات المشـمش كاملة الاسـتدارة بلونها الأصفر الجميل ، لم نتفق أنا وهـو في شيء كـما اتفقنا في حبنا لهذه الفاكهـة بالذات ، كانت حبات المشـمش متراصة بشـكل براق ، بريقها يضيء أكثر وهجا من ضوء طبق الكريستال التي تقبع فيه .

أصرت سـلوى أن نتصالـح أحنـت سـلوى رأسي رغـما عنـي ليقبلهـا .. ناولنـي حبة مـن حبات المشـمش أصر أن يطعمني إياها. وضعهـا في فمـي رحت أزدردها لم أشـعر لها بأي مـذاق .. ضروسي تضغط على شيء جامد لم أحاول اخراجه من فمي راحت الضروس تطحنه طحنا مع حبة المشـمش .. شـعرت بمـرارة في فمي كالعلقم رحـت اسـتعذب مرارته وانتزع مـن داخلي ابتسـامة ممزوجة بمرارة المشمش .

الصفعة

عفريتة شـقية معجونة بماء العفاريت . اللعب واللهو بالنسـبة لها كالماء والهواء ، أما كتاب المدرسـة والكراسـة والقلم فهم ثقيل لا تسـتريح نفسـها إليه وبينهـا وبينه عداوة منذ أمد بعيـد ، لا تعلم منذ متى ؟ ربما منذ جاء إليهم الأستاذ صفوت أبو العلا مدرس الحساب ، تجلـس في الفصل مثلهـا مثل الدرج التي تجلس عليه . تظل تتثاءب طـول الحصـة وهي تـدس رأسـها في الدرج حتـى لا يراها الأسـتاذ صفـوت ويطلب منها القيام للإجابة أو للتسـميع ، وبالطبع سـتظل واقفـة كعادتها لا تجرؤ على البـوح بالإجابة حتى ولو كانت تعرفها . وستكون أضحوكة الفصل ومصدر سخريتهم طوال النهار .

هذه أنا . صفاء السيد شهبول .. في سنيها الأولى .. كثيرا ما كنت أتساءل فيما بيني وبين نفسي .. ما أهمية أن نتعلم ؟ لماذا نستيقظ يوميا في هذه الساعة المبكرة من الصباح لنذهب إلى المدرسة ، ونظل نسمع

كلاما يصدع رؤوسنا . فالمدرسون لم أجد فيهم يوما من يشجعني أو يشعرني بأهميتي فكنت أنزوي في مكاني الأسير في آخر الفصل في منأى عن عيون المدرسين.

وكان يوم الخميس هو أحب الأيام إلي قلبي خاصة الحصة الأخيرة فبعد دقائق سأعود إلي البيت لأمرح وألهو كما يحلو لي يومين كاملين . فأنام وأستيقظ كما أشاء ولن تهزني يد أمي في الغد لتوقظني وهي تنعتني كعادتها بالكلمة التي أمقتها مقتا شديدا «يا كسولة»..

وها قد جاء يوم الخميس وكنت في أوج سعادتي ، ولكن وقع ما كنت أخشاه .. مد الأستاذ صفوت بصره إلي وكأنه يقصدني بالذات.. أعاد علي السؤال الذي لم أسمعه في غفلتي مرة ومرات ووقفت كعادتي ، لم أحر جوابا توقعت أن يكون العقاب كما ألفته من الأستاذ صفوت أبو العلا كالزجر والشتم والتأنيب والتذنيب طوال الحصة ولكن كان حكم الأستاذ هذه المرة قاسيا للغاية .. أشار إلى ماهر وهو من أنبغ التلاميذ لكي يجيب على السؤال . وبالطبع كر ماهر الإجابة كرا كأنه يقرؤها من كتاب . فإذا بالأستاذ صفوت يأمر ماهر بصفعي على وجهي .

أهون علي لو صفعني المدرس بنفسه، تردد ماهر، عنفه المدرس بشدة، هدده إن لم يضربني فليضربه هو بنفسه، ولم أدر إلا والدنيا تدور بي علي أثر لطمة قوية من يد ماهر وأحسست أن بريقا قويا

كاد يخطف بصري . وتحجرت الدموع في مقلتي ولم تسمع أذناي ضحكات التلاميذ من حولي .

دق جرس الحصة حاولت أن أتحرك من مكاني فلم أستطع تمنيت لو لحقت به لأرد له الصفعة ولكن أبت قدماي أن تتحرك . عدت إلي البيت ، لم يشعر أحد بالمنزل بعودتي . انزويت في حجرتي ، لم أكن أبكي بل أفكر ، لأول مرة يعمل عقلي ، فلم أعتد أن أستعمله في شيء قبل اليوم ، استعملته فقط في الأخذ بالثأر والانتقام .

لم أنم ليلتها قضيت الليل طوله أحفظ الدرس الجديد أذاكر بجد بعد أن وجدت هدفا أسعى إليه حتى ولو كان هذا الهدف صفعة أردها على وجه من صفعني .

انتظرت يوم السبت بصبر نافد ورحت أعد الساعات وكأنني أنتظر يوم العيد . يوم أن أثأر لكرامتي التي أهدرت أمام جميع التلاميذ.. وجاء اليوم الموعود انتبهت لكل كلمة يتفوه بها المدرس . وجاءت اللحظة التي أنتظرها قبل نهاية الحصة عندما طلب الأستاذ صفوت من غريمي اللدود ماهر أن يجيب على أحد الأسئلة ولم يكن ماهر مستعدا . فأخفق في الإجابة ..

يا لفرحتي .. أنا . أنا .. ظللت أرددها بحماس ونشاط غير

عاديـين لفـت انتبـاه الأسـتاذ صفـوت فقـال كـما لـو كان واثقا من إخفاقي:

– قولي يا صفاء ..

ووسط دهشة الجميع رحت أجيب بسلاسة ومهارة ولدهشتي وجدت الأستاذ صفوت أبو العلا يهز رأسه في امتنان وهو يقول:

– أحسنت يا صفاء . اجلسي .

ودارت الدنيـا أمام عينـي .. لا . لم يكن هذا الذي أريده .. أين مكافـأتي ؟ .. أين الصفعة التي ظللـت أحلم بها منذ يوم الخميس .. وانفجرت في البكاء ..

– ما الذي يبكيك يا صفاء ؟ أتبكين لأنك أجبت صوابا ؟ لماذا لم تبك إذن على أخطائك في المرات السابقة ؟

قالهـا الأسـتاذ صفـوت وكأنـه يلـوم كبريائـي .. بينـما ردد التلاميذ:

– هذه أول مرة تجيب فيها صفاء صوابا يا أستاذ ..

– لا شأن لكم بها وانتبهوا للدرس ..

مرت سـنوات حتى أنهيت دراستي الجامعية . ولكن ظل هناك شئ ما يؤرقني وجاء يوم تسلمي العمل في إحدى الشركات. ذهبت متأنقـة . دخلت مكتـب المدير الذي مد يده مصافحـا إياي متمنيا لي

التوفيق في عملي الجديد . ضغط المدير علي أحد الأزرار ليدخل بعد قليل شاب عرفت أنه سكرتيره الخاص ، وانتبهت علي صوت المدير يقول محدثا الشاب :

– أستاذ ماهر ..خذ الآنسة صفاء إلي مكتبها وعرفها بطبيعة عملها.

والتفتت إليه وأنا أمد له يدي مصافحة ، وما أن وقعت عيناي عليه حتى صعدت الدماء إلي رأسي بقوة وشعرت بنبضات قلبي تدوي ، حتى كاد يخرج من بين ضلوعي وكأنني سيغمى علي .. وارتفعت يدي لتتحسس وجهي ولم أدر إلا بصرخة تدوي في المكان .. كانت صرخة ماهر .

وتركته يتحسس وجهه وسط ذهول رئيس العمل الذي أخذ ينظر لي وكأنني مجنونة وراح يغلق ملفي ، بينما خرجت من مكتب المدير بلا رجعة ، ربما فقدت وظيفتي لكنني شعرت يومها فقط بأنني ثأرت لكرامتي الجريحة وكبريائي المهدر . لقد رددت له الصفعة ..

رائحة الذكريات

دق جرس المدرسة معلنا موعد انصراف الطالبات، وكنا قد شعرنا في ذلك اليوم بالإعياء الشديد فلقد استأثرت أبلة وداد بحصتين واحدة للتسميع مع استخدام العصا، والثانية لشرح بعض الدروس، حمدت الله أن مر ذلك اليوم على خير، فلا أدري ما الذي يصيبني يوم أن تأخذنا أبلة وداد، فهو بالتأكيد يوم قاس لا نملك له ردا، فحصة أبلة وداد تذكرني ببركان خامد واختار وقت فورانه في حصتها.. تحمر عيناها ووجنتاها وتشتد قبضتها على العصا.

كنت ممن يحملون شارة الشرطة المدرسية على ذراعي، فخورة بها فلدي سلطات لا يملكها غيري، أستطيع أن أمنع الطلاب من الدخول للفصل وقت الفسحة، ويمكنني أيضا أن أسمح لهم، وبما إنني شرطة لا بد أن أمنع..

نعم أمنع أي فرد من عمل أي شيء، حتى ولو كان دخول دورات

المياه، عبثا حاول التلاميذ إقناعي أن يدخلوا دورات المياه ثم يهبطوا مباشرة إلى الفناء، ضاع جهدهم أدراج الرياح، ولم يجد التلاميذ غير الفصول لقضاء حاجاتهم فيها، وبينما كنت أقف كالغيلم على باب دورة المياه، وأنا أشعر أني حققت نجاحا أمنيا غير مسبوق ككل رجال الشرطة حسب علمي عنهم أن لديهم غريزة المنع، فوجئت بمديرة المدرسة والوكيلة وأبلة وداد يأتين إلي يرجونني حتى أترك مكان الخدمة بعد أن صارت الفصول من الصعب الدخول إليها بعد ما حدث فيها . ما زالت أنوفنا تحمل منها طرافتها كلما شممنا رائحتها عبر شريط ذكريات الطفولة البريئة.

النسيان

توجهت بحرص شديد نحو خزانة ملابسي.. أخرجت منها تلك العلبة التي تحمل سري.. علبة قطيفة زرقاء قديمة، تحمل الشارة، نعم.. شارة حمراء.. تمنيت كثيرا أن أضعها على صدري، فالشارة كلمة السر لفتح الأبواب المغلقة، وكأن الجميع يحترمونني لأني أضع مثل هذه الشارة، أبذل قصارى جهدي حتى تكون من نصيبي في كل شهر، فهي العلامة التي تظهرني أمهر الجميع، بالرغم من إصابتي الأخيرة التي أضاعت مني أكثر من درس، إلا أني حاولت أن ألم بهذه الدروس التي فاتتني بمساعدة مدرساتي وزميلاتي، اقترب العد التنازلي من موعد الإمتحانات، زاد سهري وكدي وبذلت جهدا مضاعفا، لا أتصور نفسي وقد تراجعت عن ترتيبي وكلما طاف هذا الهاجس بنفسي ازددت إصرارا وتصميما.. جاء يوم النتيجة وكانت

سعادتي لا توصف عندما نادتني المديرة وسط طابور الصباح لتعلق على صدري نيشان التفوق.

أسير بالمدرسة مزهوة بنفسي، وكأنني أملك الدنيا بأسرها، فسقف أحلامي تلك الشارة الحمراء، عندما عدت إلى المنزل كانت سعادة أمي بالغة، احتفت بي احتفاء زاد من ثقتي بنفسي، ومع عودة والدي ومعرفته بالخبر كان لي نصيب الأسد من الهدايا، وزيادة المصروف والحلوى والنزهات الأسبوعية التي أفوز فيها معه بطبق من الأرز باللبن، أوبطبق من المهلبية بالقرفة والمكسرات.

إلا أنني اليوم لا أشعر بهذا التقدير، دخلت فاطمة زميلتي في العمل، وراحت تقوم بحركات إنسيابية بهلوانية كأنها مهرج في البلاط الملكي، والمدير لم يتمالك نفسه من الضحك، ثم رمت عليه «الصباح وحتة».. فأصبح كما يقولون «ميت فل وأربعتاشر».. لا أدري لماذا هذا الرقم بالذات ليعبر عن الحالة القصوى للمزاج السليم أو دائما يقولون «مزاجه عنب»، ربما لأن العنب يفسد بسرعة شأنه في هذا شأن المزاج ؟!

ربما .. حقيقة لا أدري.. أخرجت فاطمة علبة قطيفة زرقاء ظننتها في البداية علبتي القطيفة التي بها الشارة ولكني لمحت فيها خاتما ذهبيا.

لمعت عينا المدير وخرجت فاطمة من المكتب وقرار ترقيتها في يدها، بينما اكتفى المدير بالنسبة لي بأنه لا توجد درجات خالية، وانكب على العمل مرة أخرى، دون أن ينظر إلي، أدركت أن شارتي لم يعد لها وجود لقد ظهرت شارات أخرى لها الأهمية والسبق.

وأن شارتي ستظل حبيسة علبتها القطيفة أطل عليها من حين لآخر فلم تعد إلا تحفة قديمة عفا عليها الزمن.

أبلة وداد

عيناها الضيقتان تشعان بوميض الذكاء الذي يظهر كفلاشات خاطفة، فمها الدقيق الذي لا يعرف سوى الحديث في مادة العلوم، والعقوبة لمن ينسى جديتها المعهودة فضحكتها بحساب، كنت أفكر هل تضحك أبلة وداد مثلنا، فلم أسمعها تضحك كأبلة فاطمة عيش مثلا، التي كانت تنطلق ضحكتها في أنحاء المدرسة لتعلن عن وجود أنثى غير عادية، فينطلق الأساتذة تاركين فصولهم وحصصهم ليبحثوا عن مصدر الضحكة الأنثوية الخطيرة ، أما أبلة وداد فهى قصيرة ومكتنزة إلى حد ما ، ترتدي (جيب) قصير وطقما مكونا من قطعتين..

كان ذلك الطراز في تلك الأيام موضة ويفضلنه السيدات العاملات وغيرهن، شعرها القصير البني المائل للحمرة، يتفاعل مع وجنتيها إذا لاحت منها أمارات العصبية والتوتر، عندما نخِّيب أملها

في الإجابة بعد حصة ساخنة مفعمة بالشرح الوافي، أستاذة ممتازة في مادة العلوم لكنها قاسية للغاية، كان الجو مظلما نذهب للمدرسة في الفترة المسائية أو قسم الظهر، كما كانوا يطلقون علينا، ولا يتركوننا مع مشاعرنا البغيضة لهذه الفترة وفقط وإنما يشيعوننا بأغنيات قد لحنوها خصيصا ليمعنوا في أذانا فيرددون معًا وكأنه نشيد قومي.

– اسم الصبح شاطر يضرب بالخناجر .. اسم الظهر بليد يضرب بالشلاليت.

كنا نحقد على هؤلاء الذين يخرجون وقت الظهيرة، ليمارسوا يومهم كالمعتاد ويتناولوا غذاءهم مع أسرهم ، وفي المغيب ينهون أعمالهم اليومية لينام مبكرا ويشاهدوا المسلسل اليومي لأنهم أنهوا واجباتهم ..

أما نحن فنخرج من المدرسة مع آذان المغرب، نشعر بالسأم والملل وعدم الرغبة في الذهاب إليها، لا أدري لماذا أشعر بالحزن والكآبة لحظة خروجي من المدرسة في ذلك الوقت المتأخر والظلام يفرد أجنحته على الكون.. الجو كله يعطيك إيحاء بالنوم حتى المدرسين غير مقبلين على التدريس في هذه الفترة المسائية، إلا أبلة وداد نشيطة كعادتها.

انقلب الجو فجأة في ذلك اليوم برودة شديدة، أمطار غزيرة

جعلت أطرافي تتصلب، وأسناني تصطك ببعضها بالرغم من أنني أرتدي ملابس صوفية ثقيلة، أشعر بالبرد يخترق عظامي، أرتجف ككتكوت صغير مبتل خرج لتوه من بيضته، أقبع في ركن من أركان الفصل.. الرعشة تسري في أوصالي، ابتلت ملابسي من شدة المطر، بدأت أسعل وأعطس.. فوجئت بيد تربت على كتفي.. شعرت لملمسها دفئا، هدأ من روعي، عندما التفت وجدتها.. أبلة وداد لمحت على شفتيها ابتسامة رقيقة فوجئت بها تخلع الجاكيت الذي ترتديه وتلبسني إياه، منذ ذلك اليوم أحببت أبلة وداد رغم قسوتها، وأصبحت أرى في عينيها الضيقتين حنانا وعطفا غامرا لا أراه في عيون أكثر اتساعا وأقل قسوة..

أستاذ زاهر وأبلة عصمت

لا أدري لماذا تذكرت أستاذ زاهر في هذا الوقت، لقد عكر صفو حياتي، شعرت منذ زمن أن بيني وبينه ثأرا قديما أريد أن أقتصه، ربما من أجل أبلة عصمت، لم أكن أتخيل أني أتزوج رجلا مثل أستاذ زاهر.. نعم لقد كان زوجي نسخة مكررة منه، لم أشعر تجاهه يوما بالحب ولكنها حياة فرضت علي دون أن أختار لم أشعر أنه اختارني، ولكن الظروف وضعتني في طريقه، ترى هل ضاعت حياتي وهل ضاعت فرصة الاختيار للنهاية؟

ملامحها رقيقة كملامح طفل يحبو يتحسس العالم الخشن، فيحتك جسده الرقيق بقسوة ملمسه، تميزها تلك التسريحة التي تزيدها جمالا، بالرغم من تعارض تسريحة الأسد التي تخالف طبيعتها الرقيقة الوديعة كغزال بري رقيق وتساءلت بيني وبين نفسي لماذا اختارت أبله عصمت هذه التسريحة بالذات؟!

ربما لأنها تحتاج إلي أنياب وحوافر، لتخالف طبيعتها الهادئة الرقيقة، إنها أشبه بأرنب وديع رقيق، ولكن أحيانا تكون الأرانب بحاجة إلى مخالب نمر وأنياب أسد وسم ثعبان كان هذا تماما ينطبق على الأستاذ زاهر، لم يكن يتفق معها في أي شيء، كنا نتساءل فيم بيننا :

– ألم تجد أبلة عصمت أفضل منه، إنه لا يتناسب معها على الإطلاق ..

دق جرس الفسحة وجاءت صديقتي عواطف مسرعة تهمس في أذني:

– تعالي بسرعة الحقي هايفوتك نصف عمرك ..

تركتني ومضت مسرعة، شعرت ببعض الاضطراب ترى ماذا حدث ؟ لم يكن هناك وقت لأفكر وأخمن ماذا حدث جريت وراءها مهرولة لأجد الفتيات قد تكالبن فوق بعضهن وعندما لمحتني عواطف قالت لي :

– اسرعي من هنا..

أفسحت لي مكانا بالكاد لكنني لم أفهم ما يحدث فقلت لها:

– ماذا هناك يا عواطف؟

راحت تقول في تأفف:

- ماذا دهاك ؟ ألم ترين أستاذ زاهر انظري ها هو..

قلت لها:

- وماذا في الأمر..

ازداد غيظها وحنقها علي كأنني سأقطع عليها مشاهدة لقطة مثيرة من فيلم لعبد الحليم حافظ .. وقلت لها:

- هل يقف مع أبلة عصمت؟

ازداد تأففها وعلا صوتها:

- يا صبر أيوب، هل أصابك العمى الحيثي، ها تفوتي علي الفرصة إنها أبلة فاطمة عيش.. ألا ترينها !!

كانت أبلة فاطمة رائعة الجمال جسد مرمري، بشرة ناصعة البياض كالثلج، ووجه صبوح وعيونها السوداء بأهدابها الطويلة الكثيفة المنسدلة على عينيها كمخمل يحميها من عيون الطامعين، تسير فيرتج كل جزء فيها بطريقة انسيابية محسوبة، كأنها فرقة موسيقية تعزف لحنا أسطوريا، تتابعها عيون المدرسين الذين اصطفوا حتى لا يفوتهم نغمة من نغمات اللحن.. تلاحقنها عيون الفتيات والمدرسات، كل شيء فيها ينطق بالأنوثة الطاغية، تعلن عن نفسها بصراحة غامرة فتجتاحك كطوفان أنثوي، حتى تجد نفسك-غرقان لشوشتك.

شعرت بصدمة عنيفة وأنا أرى أستاذ زاهر يكاد يلتهم أبلة فاطمة بعينيه النهمتين ، يهمس في أذنيها بكلمات لتتعالى ضحكاتها في الفناء، كلما تعالت ضحكاتها كلما ازدادت الفتيات هياجا وأحدثن ضجة عارمة وتزاحمن فوق بعضهن تحاول كل منهن أن تجتهد لتخمن ماذا يقول لها أستاذ زاهر لترقع هذه الضحكة عالية مجلجلة في الهواء فتوقظ شياطين الرغبة في نفوس الضعفاء منهم ..

ابتعدت عن الجمع وأنا أتساءل.. كيف يخون أبلة عصمت؟!..

تحولت الفتيات إلى النافذة الأخرى وعواطف تناديني:

- تعالي بسرعة فيه تطورات خطيرة في الموقف..

لم أتمالك نفسي فقد دفعني حب الفضول لرؤية ما يحدث.. أبصرت أبلة عصمت تبكي وحولها أبلة وداد ، وأبلة حبيبة وبعض المدرسات يهدئن من روعها وانفعالاتها ذكرتني بست الحسن والجمال والساحرة الشريرة رحت أصيح في غضب.

- أنا لو مكانها أتركه فورا..

وجدتني أحدث نفسي هل هذا صحيح ؟ ألست في مكانها بل في مكانة أقل من مكانتها ربما هي كانت على البر لم ترتبط به بعد ولم يحكم عليها بقضاء العقوبة في زنزانة منفردة منعزلة عن كل من تحبهم ويحبونها ربع قرن قضيتها من عمري.. ضاعت أجمل السنوات ولم أحقق شيئا..

شـعرت بكراهية لأسـتاذ زاهر كنت أتمنى أن آخذ لها بثأرها فهو يمعن في إيذائها وإهانتها أمام الأخريات و لا تحاول أن تثأر لكرامتها لقد أدركت أنها لا بد وأن تتركه بعد هذا الموقف لكن الغريب وجدته هو المتأفف وهي التي تحاول إرضاءه..

شـعرت بالغيـظ منها.. لا بـل الإشـفاق عليها ينبغـي أن تكون شـخصيتها أقوى مـن ذلك عليهـا أن تواجهه وتخبره أنهـا لا تريده، وأن تقـف في وجهـه.. انقضى العام وانتقلـت إلي صف دراسي آخر، وفوجئت بأستاذ زاهر يدرس لنا الرياضيات أدركت أنني لن أنجح في هذه المادة ، فأنا لم أعد أحبه ولن أفهم منه.

في أول حصة له حدث ما كنت أخشاه، وجدني شاردة لا أتجاوب معه.

فقال لي:

- قومي يابنت يا تخينة.

صدمـت مـن كلامـه الـلاذع، ولم أجـب عليـه، كادت الدمـوع تنهمر من عيني ، لولا أني تماسـكت ، حتى لا يرى دموعي فيبدو أنه يستمريء دموع الأنثى ويستعذبها.

مضيت إلى حجرة مدير المدرسـة لأشـكوه، تعاطف معي مدير

المدرسة، خصوصا أن سمعة الأستاذ زاهر في معاكسة الفتيات داخل وخارج المدرسة تسبقه، عشت مشكلة أبلة عصمت فلم تعد القضية قضيتها أو قضية مدرسة أحببتها.. لكنها أصبحت مشكلتي أنا لقد صرت أنتقم من كل الرجال في شخص الأستاذ زاهر أريد أن أثأر لأبلة عصمت السلبية التي لم تقف أمام هذا الرجل المغتر برجولته أستاذ زاهر..

اشعر أنه نغص على علاقتي بعزت زوجي بعد هذه السنوات الطوال، في كل موقف يقوم به عزت لم أرد على أفعاله.. لم أره يوما سوى الأستاذ زاهر.. كنت أتمنى ألا أكون نسخة باهتة لأبلة عصمت وهي ترضى بالذل والهوان من أجل حبها.

عاود الاتصال بي ، ألح في طلبي ، حاولت الإفلات وقمت بإلغاء المكالمة لكنه ارسل لي رسالة يقول فيها :

– شعرت بالإحتياج لك ولأول مرة ، أشعر أني أفتقدك بالرغم من مرور سنوات طويلة علينا معا.. عودي بسرعة يا حبيبيتي .

لم أصدقه يوما، وجدتني أرد عليه برسالة:

– حاجز يفرق بيننا ، أحاول اكتشاف العالم الذي فقدته يوما علي يديك .

همست لنفسي:

- ترى هل يمكنني الاختيار؟

شعرت بنظراته الساخرة ، تظهر لي علي شاشة الموبايل وضحكاته التي تستهزئ مني وبكل ما أقول أو أفعل سمعته يقولها :

- بالطبع لن تستطيعي.. لن تأخذي النيشان الذي تحلمين به، ولن أمنحك هذه الفرصة ، غطت الدموع وجهي، مددت يدي لأمسح هذا السيل المنهمر من الدموع، أتمنى ألا أبكي أمامه، أريد أن أقوى على الاختيار، لكن مازال هناك شيء أحمله له ولا أدري كنهه؟

تمنيت لو عرفت أخبار أبلة عصمت وأستاذ زاهر، بحثت في أجندة تليفوناتي القديمة وجدت تليفون عواطف صديقتي لم تصدق نفسها عندما سمعت صوتي، راحت تسألني عن أخباري وماذا فعلت بي السنون .. سألتها هل تعرفين شيئا عن أبلة عصمت وأستاذ زاهر، لكني فوجئت بها تضحك بشكل هيستيري وتقول:

-ياه أنت لسه فاكره الموضوع ده.

وجدت نفسي أحتد وأقول لها أرجوك يا عواطف أخبريني ماذا فعلت أبلة عصمت مع أستاذ زاهر ؟

توقفت عواطف عن الضحك وفي صوتها رنة استغراب لاهتمامي بهذا الموضوع بعد كل هذه السنوات وقالت لي :

- الـشيء الذي لا تعلمينه أنها لم تسـتطع تحملـه ولم تكمل حياتها معه..

تفوهت رغما عني الحمد لله لقد شعرت بالراحة .. الآن يمكنني الاختيار..

عصابة الغلبة

يـوم الجمعـة عيد لـلأسرة ، أهـم شيء يفرحنا نحن الصغـار إننا سـوف ننام كما نريد فليس هناك اسـتيقاظ مبكر للمدرسـة، ننام كما يحلـو لنـا والإفطار على مائـدة الأسرة جماعة، فقد كنا نعشـق الطعام بشـكل جماعي يتخلله حديث عذب عـن كل شيء، وبخاصة عندما يكون والدي بيننا فظروف عمله لم تكن تسـمح له أن يتواجد بشكل مستمر، فهو يسافر دائما.

يسـتعد الجميـع لصلاة الجمعة، تعـد أمي كل شيء من ملابس وإفطار، عندما نستيقظ تكون قد جهزت الإفطار على المائدة، وبدأت في إعـداد طعـام الغداء كنا نطلـق علي يوم الجمعة يـوم الروائح ففيه نشم رائحة الشواء، ومختلف صنوف الطعام، احتفالا بوجود والدي ووجودنـا جميعا في المنزل ونظل نلاحق أمـي أن تعطينا لنتذوق طعم هـذا وذاك، تختلـط رائحة الشـواء اللذيذ التي تُسـيِّل لعابنـا برائحة البخور الجاوي الذي تعشـقه جدتي، وتـصر أن تطلقه في أفنية البيت وغرفه وقت آذان الجمعة.

رائحة البخور تزعج أمي كثيرا فتشعر بالاختناق، لكن جدتي لا تعبأ بذلك المهم أن تبدأ طقوسها في الوقت الذي تريده هي، وبالشكل الذي يرضيها، وعندما تلومها أمي تقول:

- البخور بركة في البيت يبعد العين ويطفش العفاريت.

فترد أمي :

- ده احنا اللي ها نطفش.

تجيبها جدتي بكل ثبات:

- بخاطرك يمكن تكوني منهم أشتاتا أشتوت ..

راحت الأبخرة تتصاعد كأنها مارد عملاق يوشك أن يتجسد، وكم كنت أتمنى أن يخرج المارد من القمقم ويريح أمي من صفيحة الغلية، التي كانت فيها سبق صفيحة سمن أو جبن بالحجم العائلي، وتقوم أمي بغلي وتعقيم الملابس مع إضافة المستحضرات المختلفة للغسيل، ومن حين لآخر تقلب الغسيل رأسا على عقب، بواسطة عصاية الغلية كنت أضحك كثيرا من هذا الاسم الذي لصق بها ولم تختره بالرغم من أن لها وظائف أخرى كنفض المراتب و السجاد ، ونفضنا نحن أيضا إذا إحتاج الأمر فإذا أخطأنا فالعصا أشد عقاب يعاقب به من يخطيء خطأ فادحا حيث كان والدي يكرر شعاره «العصا لمن عصى».

لم يكن والدي يحب أن يلجأ إليها على -الفاضي والمليان- كما

يقولـون ولكـن العلقة قـد تمتد من سـنة إلى أخرى، فصـبره ليس له حدود.

مـا أجمل رؤية ملابسـنا وهي جافة نظيفة بيضـاء بياضا ناصعا، كأنها حمائم بيضاء ترف بأجنحتها، تشتم فيها عبير النظافة فتبعث في النفس الهدوء والطمأنينة والإنشراح .. كنت أحسب أن العالم كله في نقاء تلك الحمائم البيضاء.

ظل موقد الكيروسـين -يوش- منـذ الصباح الباكر وحتى وقت متأخـر من الليل ، كأننـا في المطار ما بين صعود وهبـوط وأزيز يُزيد الطنـين في الأذن، يرتفع الضغط ويزداد السـكر عندما يلوي المذكور لسـانه ، وكأنه طفل مشاكس يعاكس أمي فتنغزه بإبرة الوابور، لعله يحس على دمه، لكنه يلوي بوزه ويخرج لسانه على الجانب الآخر حتى يشـتد الصداع بأمي وتعصب رأسـها، تزداد عصبيتها ويزداد شجار جدتي لأنها تريد أن تنفرد بدخول دورة المياه ولاتريد أن يعكر صفوها هـذا الضجيـج، عندما تنتهي أمي من مباراة الغسـيل، تطفيء الموقد نصفق جميعنا، ونهنيء بسـلامة الوصول إلي أرض الوطن ، وبالرغم من إنهاكها وشـعورها التام بالإرهاق، لا يفوتها أن تقوم بعمل كيكة أو نـأكل عزيزة اللذيذة ، وفي نهاية اليوم طلبت مني جدتي أن أذهب لأشـتري لها -حق نشـوق- ،كان التعب قد نال منـي ولعب برأسي فرفضـت الإنصياع لطلبها، ليأتي والـدي بالعصا لتمارس وظيفة من وظائفها معي، وبدلا من آكل عزيزة اللذيذة أكلت علقة ساخنة .

عفريت الأستاذ عبد القادر

حصة الأستاذ عبد القادر .. كارثة حقيقية .. مأساة .. تحدث كل يوم، في الصباح أخشى أن تقع عينه علي فلن يعتقني لوجه الله مهما أنجزت واجباتي بحذق ومهارة ، لكن لا جدوى من ذلك سيجد لي خطأ ليعاقبني عليه، ولن أستطيع الإفلات من الواجبات أو حصته..

في المساء أعود للمنزل وأحمل هم إتمام الواجب، بت أكره حصة اللغة العربية حصة الأستاذ عبد القادر ، وجهه الأسمر الذي استحال لبحيرة من العرق يتصبب فوق جبينه من الانفعال المستمر، قسماته المتشنجة طوال الوقت، ذلك العرق النافر في جبهته كلما عاقب أحدا منا، أسنانه التي يضغط عليها في غيظ مكتوم ، عينه الجاحظة وهي تدور في وجوهنا، كأنه يود لو افترسنا جميعا - يداه المعروقتان تتشنجان بمجرد أن يسمع صوتا داخل الفصل.

كنت أشعر أن مجرد رؤيته لنا ينشط لديه هرمون الأدرينالين فيتوتر، وتبدأ عصاه الرفيعة المنزوعة من جريد النخيل في لسوعتنا، كنت أشفق عليه أحيانا عندما أرى عروقه تتمدد وتنتفخ تكاد تنفجر من ذلك الوجه المحتقن، لدرجة أني في كل ليلة أنجز الواجب المدرسي الخاص بأستاذ عبد القادر وأضع رأسي على الوسادة ولا يساورني سوى حلم واحد لا يفارقني .. كابوس عبد القادر، فيهيأ لي كأنه مارد عملاق قدمه في الأرض ورأسه في السماء، تلمع عيناه في الظلام ويمد ذراعيه الطويلتين نحوي، تطبق يده على عنقي.. تضغط بشدة.. أرتجف.. يطيح فينا ونحن نهرع منه في صراخ، أختنق.. أتملص بصعوبة أستيقظ على صراخي.

ذات يوم ذهبت إلى المدرسة وأنا أرتجف أدعو بيني وبين نفسي أن يغيب الأستاذ عبد القادر لأي سبب من الأسباب، لكن كيف يحدث ذلك وهو الذي لا يتخلف عن موعده، يأتي مع دقات جرس الحصة، كنت أشعر أن المرض يخشى الإقتراب منه.

لدهشتنا جميعا لم يأت الأستاذ عبد القادر، ومع ذلك ظللنا جالسين في مقاعدنا صامتين، نتوقع ظهوره في أية لحظة.

فجأة دخل علينا مدير المدرسة ليعلن خبر وفاة الأستاذ عبد القادر مدرس اللغة العربية، صمت الجميع.. خيم على المدرسة جو

مـن الحـزن والكآبة .. بكيـت يومها كما لم أبك في حياتي .. شـعرت بتأنيب الضمير.. ربما رغبتي في الحلم هي السبب .. حلمي هو الذي قتل الأستاذ عبد القادر .. لكنه مجرد حلم ..

عـدت إلي البيـت ، قمت بعمـل واجبات اللغـة العربية في وقت قيـاسي عـلى الوجه الأمثل الذي يرغبه أسـتاذي .. خوفا من عفريت الأستاذ عبد القادر أن يقتحم الحلم ..

أبلة سعاد وإلهام الشعر

سيطرت على قلبي وعقلي بمظهرها الوقور، تسريحة شعرها البسيطة ابتسامتها الجادة نظرة عينيها المحددتين كشخصيتها تماما، لقد رسمت أبلة سعاد لنفسها خطا مستقيما تسير عليه منذ أن كانت مدرسة، حتى خيل إلي أنها أول من اخترع الخط المستقيم، فهي تضبط كل شيء بالمدرسة صارمة مع المدرسين والمدرسات قبل الطالبات ، فأبلة سعاد تعني الانضباط والالتزام والتفوق..

عندما كانت أبلة سعاد تدعونني لمكتبها أشعر بالسعادة ، لأنها تحترمني.. تعاملني كإحدى مدرسات المدرسة..

تعتمد علي في أمور كثيرة .. أشعر أنها مدرستي وعلي أن اعمل كل شيء من أجل فوزها بلقب أفضل مدرسة .. خاصة أني أمثل اتحاد الطالبات بالمدرسة، وقد رشحت على مستوى المديرية بفضل

أبلة سعاد وتشجيعها لي.

عندما دخلت مكتب أبلة سعاد .. وقفت إجلالاً واحتراما لمديرة المدرسة .. فوجدتها تعاملني وتحدثني ببساطة .. لا تخلو من التكلف، وود لا يخلو من التصنع وحب واحترام جعلني أحبها من كل قلبي قالت لي:

- أنا أعلم جيدا أنك شاعرة موهوبة.. خفضت رأسي خجلاً.

استطردت أبلة سعاد وقالت:

- أريد منك أن تكتبي قصيدة عن احتفالنا غدا بالسادس من أكتوبر ولا تنس أنك في مدرسة تحمل نفس الاسم.. لتلقها بنفسك أمام التبادل الطلابي الذي سيزورنا غدا بهذه المناسبة ..

وجدت نفسي أعيش دور الشاعرة الموهوبة وأخذتني الكرامة لأقول لها:

- إذا استطعت يا أبلة سعاد سأكتب القصيدة .. فأنت تعلمين أن للشعر إلهامًا ولا أدري ربما لا يأتيني الإلهام اليوم أو غدا .. وأنهيت اللقاء بقولي سأحاول أن أكتبها

قالت لي :

- ضروري .. حاولي وستفلحين

- خرجت من مكتب المديرة ولا أستطيع أن أخفي معالم السعادة

التي أشعر بها فمديرة المدرسة تعترف بنفسها أنني شاعرة ولست أي شاعرة بل شاعرة موهوبة .. والدليل أنها كلفتني أنا الوحيدة دون باقي الطالبات في المدرسة بتأليف القصيدة وإلقائها في حفل المدرسة في الغد .. لم تكن أبلة سعاد ككل المديرات والمديرين فمن ترضى عنه لا بد وأن يكون أهلا لذلك فهى لا تجامل أحدا مهما كانت صفته أو كنيته الكل لديها سواسية ..

وصلت إلى البيت.. بدلت ملابسي على عجل.. اختليت بنفسي في حجرتي.. أخذت أعتصر ذهني محاولة العثور على بعض الكلمات التي يمكن أن تكون أبياتًا، وكلما نادتني أمي تعللت بأني اكتب شيئا مهما وأنتظر الإلهام بل إني اشتبكت مع إخوتي الصغار لأنهم يتشاجرون معًا فيضيعونه مني، وربما جاء الإلهام في تلك اللحظة التي كانوا يتشاجرون فيها .. ويذهب دون رجعة..

جلست لتناول الغداء مع أسرتي متعجلة.. متلهفة مفتقدة شيئا ما .. شعر والدي بثمة شيء يعكر من صفوي فسألني فقلت له في تعجب :

– تصور يا بابا عندنا زيارة غدا في المدرسة والمديرة تريد مني أن أقوم بتأليف قصيدة حتى ألقيها في الغد عليهم !!

أجابني: وماذا في الأمر ؟

- قلت كيف أضمن أن يأتيني الإلهام فقال والدي

- إلهام ماذا ؟!!

قلت له :

- إلهام الشعر ياوالدي .. فإلهام الشعر ليس تحت أمري ربما لايأتي فكيف يكون الحال إذا لم يأت ؟

ابتسم والدي بحنكة الأب الخبير وقال :

- حاولي ولن تخسري شيئا، ابتعدي عنا واستدعه.

كانت كلمات والدي المشجعة بمثابة كلمة السر .. تميمة علي بابا التي تفتح أبواب الإلهام المغلقة .. دق الباب وكان الطارق إلهام .. إنه إلهام الشعر فتحت له الباب على مصراعيه .. وبالفعل قمت لتوي فكتبت القصيدة .. وفي الغد كان أول من لقيني عند باب المدرسة أبلة سعاد ولم يفتها أن تسألني :

- ترى كيف الحال هل أتى إلهام الشعر بالأمس ؟

قلت لها وأنا أخفض رأسي في خجل:

- نعم لقد أتى ..

- قالت وهى تضحك :

- أنا التي أرسلته إليكِ بالأمس .. وضحكت.

صورة على الجدار

ذاكرتي تعذبني تحفظ الذكريات المؤلمة والسعيدة على السواء، كم رجوتها أن تحذف اللحظات القاسية المريرة وترمي بها داخل الجراب وتنساها إلى الأبد، ولكنها تأبى أن تنسى، تفاجئني دائما بلحظات أتمنى لو ألقيت بها في أغوار البحر كي لا تعود وتطفو على السطح، لكنها تقاوم الموج وتبحر لترسو على مرفأ عقلي وذاكرتي، فنحن نتذكر كليهما ونستعذب مرارة الألم بعد أن انقضى وولى، ونشيد بأنفسنا على اقتحام الصعاب وقهرها، لحظاتنا السعيدة ربما لا تكون بالقدر الذي مرت علينا فيه لحظاتنا التعسة المريرة لكننا نستعذبها ونقول:

هيييه .. أيام ولت.. وكما تختلط القسوة والسعادة في ذاكراتنا، تختلط النكسة بالنصر واللحظات الصعبة بتلك العذبة، أتذكر قصف طائرات العدو لبيوتنا في مدن القناة، و طائرات العدو تملأ السماء كالطيور الجارحة، وأنا وأختي الصغيرة نقف لا نعبأ بالطائرات

تحـاول كل منا أن تميز طائرات العدو مـن طائراتنا، وكل منا راحت تشير.

– هذه طائرتهم.

ولكني أعود فأهتف:

– لا.. هـذه طائرتنـا إنها تـدور حولها تحـاول أن تقتنصها لتقضي عليها.

كـم كانـت سـعادتنا عندما نرديهـا قتيلـة فتتهـاوى طائراتهم كما يتهاوى الذباب المحترق أمام وهج شديد.

عويـل السـيدات وصراخهـن وخوفهـن من نشـوب النـيران في مسـاكنهم، الصواريـخ تتـوالى واحـدا تلـو الآخـر، النسـاء يحملن أولادهـن ويجريـن لا يعرفن إلي أين المفر، سـيدة تجـري مولولة بعد أن اكتشـفت أنها تحمل بين أحضانها وسـادة بدلا من رضيعها الذي التهمتـه النـيران، علا صوتها و تنفـث لهيبها ونيران قلبها المسـتعرة، تمنـت لو حرقـت طائرات العدو الذي حرمهـا وليدها الوحيد الذي ظلت ترجوه من الدنيا.

تنهمـر دموع والـدي على خده بغزارة، بعد معرفة خبر الهزيمة كأنها سـيول عارمة تغسـل العار ، تقفز إلي مخيلتـي فرحة أمي تلملم حاجياتنـا للعودة إلي بلدنا الحبيب بعد أن عشـنا سـنوات صعبة عن مدينتنا وبيتنا وحديقتنا وجيراننا وشمسنا..

كل شيء يشير أننا لن نعود بذاكرة ممسوحة، لكن تتشكل الذاكرة في سني الغربة وسنوات العشق والهوى وحنين الرجوع، لنعود نتحسس كل شيء بأيدينا.. نتذوق بأفواهنا مذاق ذكريات الطفولة العذبة.. وتلتهم عيوننا كل جمال في الماضي ربما لنرسم صورة المستقبل ونحن نتشبث بحنين إلي الماضي الجميل..

كم كنت أتوق للرجوع إلى منزلنا القديم، لقد لعبنا بين جدرانه وكبرنا تضمنا حوائطه، وشهدت أبوابه علينا في كل يوم نضع علامة كم بلغنا من طول، وكبيرنا يتفاخر ببلوغه حدا كبيرا من الباب، والصغير يتمنى أن يصل لمبلغ الرجال ويطول السقفه، وأين نحن من باب البيت المكين، أحيانا يهاجمني خاطر ماذا لو كسر باب المنزل ولم نستطع تركيب الباب ؟

ذلك الباب الذي يحمينا من غدر الوحوش الضارية خارجه، ويشعرنا بالأمان والسكينة في أحضان الآباء والأمهات وننام على حكايا الجدات وعطف الأجداد، كم كنت أتوق للعودة لأبحث عن عروستي الصغيرة التي تركتها منذ أعوام كثيرة وكم ساءلت نفسي ترى هل كبرت كما كبرت؟ وكيف حالها بعد طول هذه السنوات وهى تعيش بلا طعام أو شراب.

كيف تعيش دون أن تبدل ثيابها طوال هذه الأعوام، وبمجرد عودتي سررت لأني عرفت الطريق إلى منزلنا فهيئته محفورة في قلبي

جريـت نحو الحديقة لأجد حشائشـها أكثر مني طولا، لقد اختفيت وتلاشيت وسط الحشائش والنباتات، صعدت أدراج السلم مسرعة لأبحـث عن عروسـتي التـي وقعت مني يـوم أن تركنـا المنزل تحت قصـف طائـرات العدو، وجدتهـا ملقاة في نفس الركـن البعيد الذي اعتـدت اللعـب فيه.. كانت مشـوهة بنـيران طائرات العـدو، فمها مفتـوح كأنها تتأوه.. تصرخ، أما الصورة التـي أحبتها أمي وتعلقت بهـا فهي لإحدى الفتيات الجميلات معلقة على الجدار كما هي، باهتة شـاحبة زال جمالها فـترت ضحكتهـا.. عانت طوال هذه السـنوات مـن الألم والوحـدة ، أراها بعينـي طفلة تضحـك ضحكتها المشرقة التي تفتر عن أسـنان براقة وثغر بسـام وبريـق عينيها يبعث الأمل في قلب تهدم وشـعر بالعجز لكنها اليوم شـاخت مثل عروستي وتلك الصورة على الجدار..

بياع البطاطا

الجو بارد ، المطر يهطل بغزارة، استوقفني مشهد هطول المطر من زجاج النافذة، وذلك العصفور الحائر الذي على ما يبدو فقد عشه، ولا يدري ماذا يفعل في هذا البرد القارس، انكمش على حافة النافذة في ركن خفي بعيدا عن المطر.. تقوقع على نفسه كأنه يطرد حبات المطر التي شنت عدوانا علي عشه الحبيب..

رحت أعبث بالسحابات البيضاء التي تكونت من هواء الزفير على زجاج النافذة، قمت بالكتابة عليها بأناملي الصغيرة، رسمت أشكالا وخيالات، رجالا ونساء وأطفالاً، لكني خشيت عليهم هذا الزمهرير، تمنيت لو دثرتهم بالروب الثقيل الذي أرتديه، رسمت زهورا بيضاء كالثلج، تمنيت لو حل لونها الناصع داخلنا وامتلأت قلوبنا بالدفء لما أحس العصفور المسكين بالبرد الشديد، انتابني احساس بالشوق لما يجري خلف النافذة ، فمسحت أطياف أحلامي

وخيـالاتي من على زجـاج النافذة لأرى ماذا حدث لعصفور الشـتاء المبتل الحزين..

لمحته أمامي واقفا منكمشا كالعصفور الذي رقد على حافة نافذتي متدثرا بمعطف ثقيل، يلف رأسه بكوفية من الصوف، و دخان كثيف يتصاعد من المدخنة في الهواء أشـعرني بالدفء، سـمعت صوته يأتي ضعيفا خلف زجاج النافذة المغلق.

- بتعريفة بطاطا وبالونة ومروحة هدية ..

رحت أتجول بحرية في المنزل، لم يشـغل بالي سوى العلاقة الغريبة بين البالونة والمروحة والبطاطا، قلت لنفسي ربما يوزع البائع المروحة حتي -نهوي- بها على البطاطا الساخنة ولا تلسع أيدينا، أما البالونة فـما علاقتهـا بالبطاطـا والمروحة؟ ربما تنفـخ البالونة لكثـرة نفخات البائع في البطاطا حتى تبرد، لكن لماذا لم يستخدم هو المروحة بدلا من نفخ البالونات؟. في النهاية عجزت عن إيجاد علاقة منطقية غير التي توصلت لها منذ قليل.

لم يعـد يشـغل بالي سـوى أمر واحد أن اشـتري من بيـاع البطاطا ويمنحنـي هديته البالونة والمروحـة .. نزلت بسرعة غير عابئة بالبرد والمطر لأحصل على المروحة والبالونة الهدية ومعها البطاطا و لم يفتني أن اسأل البائع:

- عمو لماذا تعطي البالونة والمروحة هدية على البطاطا؟

نظر إلي الرجل بتعجب ودهشة لكنه أجابني ببساطة قائلا:

- البطاطا تغذيكي، والمروحة تهويكي، والبالونة تفرحك وتهنيكي ..

كم كانت سعادتي عندما أحصل على البطاطا والمروحة والبالونة أقصى معنى للسعادة والرضا .. تذكرت أن ابني مثلي يحب البطاطا المشوية بنار الفرن من مدخنة البائع، فاشتريت له لكن لم يكن بتعريفة.. ولم يكن البائع يعطي لا مروحة ولا بالونة هدية فكرت أن اشتري له هذه الأشياء حتى يشعر بما استشعرته من سعادة من قبل، نظر لي باستخفاف.. ولم يكتم مشاعره وقال لي:

- ألم يكن من الأفضل أن تأتي لي بدراجة أو (بلاي ستيشن) 3 بدلا من البطاطا؟

النقيضان

نقيضان .. ما إن يجتمعا حتى يفترقا من جديد، تعانقت خيوط الظلام مع تباشير الصباح كى تودعهما، وكلما تذكرا الدهر الطويل الذي سيمر عليهما وهما مفترقان، ازداد عناقهما في ديمومة لا تتعدى اللحظة.. هي لحظة من الرفض والتحدي، يستغربان يندهشان يتساءلان لماذا هما بالذات في هذا الكون العريض اللذان يحتمل موعد لقائهما نفس موعد فراقهما؟

يا لقسوة القدر يمر عليهما بسرعة مذهلة انفض التلاحم، بدأ كل منهما ينفصل عن الآخر، تنزوي خيوط الظلام بعيدا وتقترب تباشير الصباح شيئا فشيئا لتملأ بنورها الكون.

كان الوقت متأخرا، فقد أوى الجميع إلي فراشه منذ وقت طويل، إلا أنا ظللت في فراشي أتقلب علي الجانبين يمنة ويسرة، تارة أدس رأسي تحت الوسادة لأختزل الكون في سماء هي وسادتي وأرض هى فراشي الذي أتمرغ عليه .. حتى أعزل نفسي عمن حولي، هيهات

أن أستطيع إبعاد هذا الشعور الذي يسيطر على حواسي، وقفت بدلال وخفة واضعة يديها في خصرها بثقة وتحد تنتظر لحظة اللقاء والتلاحم بشوق، بالرغم من أنها اعتادت أن تعطي ولا تأخذ تمدح ولا تستأثر مثلها في العطاء والبذل. أحيانًا تبدو لي كإحدى الباريسيات وهي تضع على رأسها قبعة مستديرة، وأحيانًا هي طباخة سمينة يتدلى كرشها وتستدير بطنها كالقِربة، ومع ذلك تجذبك بإلحاح شديد لا تستطيع مقاومته، يبدو أنني وقعت فريسة لهذا التناقض الذي يكتنف كل شيء حولي.. فشتان بين قلبها وقالبها فقلبها يحمل مذاقا شعبيا لذيذا يميزها عن مثيلاتها، بينما قالبها الذي تتفنن في إبرازه للجميع غير صادق فهو ينم عن طراز أجنبي دخيل عليها اقتحمها واختلط علي مذاقها بين القِدرة والعلب المحفوظة حائرة بين جمالها الداخلي وشكلها الخارجي. لكن ما لا تستطيع أنفي أن تخطئه رائحتها التي تفوح منها هي وحدها فتنفرد بها عن غيرها معلنة عن نفسها.. لم أستطع أن أقاوم رائحتها الجذابة التي تثير شهيتي وتسيل لعابي خصوصا وأن الجوع راح يمزق أمعائي، أخذت رائحة الموقد الذي يعمل بالكيروسين تغزو أنفي فتصيبني باختناق ودوار وغثيان لكن كل هذا يهون مع الرائحة المحببة إلى نفسي، أخيرا لذت بفراشي، نهضت سريعا كأني على موعد لا تخطئه معدتي فقد انتشر نور الصباح، فرشت الشمس أشعتها علي الكون، راحت تزركش الوجود بشرائط ذهبية لامعة، وجدت أمي تحمل طبق الفول المدمس الساخن ورائحته تفوح بعد أن وضعت عليه

الزيـت والليمون والكمـون.. دائمًا ما يداخلني شـعور بأن أمي هي القِّدرة أما أنا فكنت المغرفة.. نعم.. أغترف منها ما شـئت، فبإمكاني إطعام العالم كله، أتحرك داخل القِّدرة برحابة واتساع، تقترب حبات الفـول في ود لتصعد في راحتي لأشـبع الأفواه النهمـة، لم تكد تضعه عـلي الطبليـة حتى تمتـد يدي إلي رغيف الخبز السـاخن.. تسـارعت اللقيـمات واحـدة تلو الأخرى، وقبل أن التقـط اللقيمة كانت هناك سـبعة أفواه تسـارع بالتقاط اللقيمات الأخرى حتى قضت على طبق الفول بأكمله، وعلى شـفتي أمي ابتسامة هادئة بالرغم من أن يدها لم تصب أيا منها. شـعرت بالرضا ونزلت إلي عملي وأنا سـعيدة قانعة بما قسمه الله لي، شتان نقيضان يجتمعان وما إن يلتقيا حتى يفترقا من جديـد، أما اليوم فأفتقد إلى قِّـدرة أمي التي أصبحت خاوية، بالرغم مـن امتلائهـا، اختنقـت المغرفـة داخـل القِّـدرة بما رحبـت تباعدت الحبـات، لا أسـتطيع التحـرك داخل القِّـدرة برغم الاتسـاع، لم تعد الأفـواه تشـبع رغم الكثـرة. تمتد أمامـي مائدة حافلة بـما لذ وطاب، لكني أفتقد إلي أمي طبقها اللذيذ الذي كان يشاركني فيه سبعة أفواه ربـما لم يكن يصيب بعضنا سـوى تلك القضمـة أو اللقيمة لكننا كنا سعداء راضين.

المرود والمكحلة

منـذ طفولتـي أراها قطعة أثريـة طالما وقفـت أمامها، تمتلك قـدا ممشـوقا لها عنق طويـل يذكرني في انسـيابيته بعنـق نفرتيتي، هـذا العنـق الجميـل على جسـد كامـل الاسـتدارة يزيدها جمالا ذلـك الجذع الذي يشـبه الـكأس، تقـف كأنها ملكـة قد توجت عـلى عرشـها وقـد ارتدت تـاج الملـك و ازدان بزخـارف جميلة حفـرت عـلى أركانهـا.

هذا هو حالي كلما ذهبت إلى منزل جدتي، أجدها تقف بشموخها المعتـاد وأنفتهـا العاليـة، طالـت وقفتي أمامهـا أتأملهـا لم تكن تقف وحدهـا في الخـوان، أو كما تطلق عليه جـدتي دولاب الفضية، كانت جـدتي تحب هذا الدولاب وكأنه خزانة لميداليات الشرف أو كؤوس نالتهـا في المارثونات، وقفت وقد أحاطوهـا، كانوا جميعا يصغرونها

وقفت تتوسطهم في شموخ كدجاجة ترعى صغارها، تنفش ريشها لتدفئهم وتظلل عليهم كانوا ثلاثة و لجدتي ثلاث من البنات.

رأسها يذكرني بذكر الطاووس الجميل، وهو يظهر ريشه علي هيئة نصف استدارة متألقا بألوانه الجميلة، كأنه يضغط علي أحد الأزرار لمفتاح التحكم، فتخرج تلك المروحة السحرية الرائعة وقد تداخلت ألوانها الزاهية في لوحة فنية خرافية، لا تملكها إلا ريشة فنان إنها مكحلة جدتي.

شعرت أنها مرتبطة بهذا المنزل الصغير الدافيء، لم أستطع تخيل المنزل بدونها كما لم أتخيل جدتي يوما دون أن تكتحل فكانت عيناها العسليتان تزداد تألقا فتضفي على المنزل رونقا منها وكأنه ظلها أو إشعاعها.

يتخللها.. يتغلغل بداخلها فبينهما حوار لا ينقطع، فالمرود لا يترك مكحلته وكأنه يخشى عليها يحبها يظلل عليها، التحما معا في عناق أبدي، لم يكن هذا هو حال جدي وجدتي بل كان من الأغرب أن يقتنيا هذا الشيء وهما دائما متنافران.

تتملكني الدهشة من هذين العجوزين لا يستقرا ن على حال أبدا ولا يهدئان، دائما على خلاف كنت دائما أسأل والدتي:

- كيف أنجب جدي وجدتي هذا العدد من الأبناء بالرغم من عدم توافقهما؟

تضحك أمي ولا تعلق بشيء، وربما سرحت مع هذه الكلمات كمن يتعجب هو الآخر فربما خطر هذا السؤال على ذهنها مرات ومرات لكنها خشيت أن تسألها.

راحت التكبيرات تعلو مآذن المساجد في يوم العيد يتفرق المصلون في كل مكان كحمامات بيض يفردن أجنحتهن في الفضاء فيبدو شكلها مهيبا، يستيقظ الجميع على طرقات جدي الحبيب أسمع صوته هادئا مريحا يهنيء أمي بالعيد يعطيها العيدية، تأتي أمي لتوقظنا حتى نسلم على جدي نسبقها إليه وتسبقنا فرحة العيد، يدس في يد كل منا عيديته، ورقات جديدة بحواف حادة وأرقام مسلسلة، لها رائحة تميزها أخشى عليها أتردد كثيرا وأنا أخرجها من حقيبتي حتى أشتري لعب العيد والحلوى، أحببت جدي كثيرا فملامحه الهادئة الجميلة وعيناه الزرقاوان ووجهه الأبيض المشرب بالحمرة تنطبع في ذهني وتأبى ألا ترافقه.

زاد عطف جدي وحنانه من رصيده في قلبي، دائما ما كان يرتدي طاقية من الصوف على رأسه ، كثيرا ما داهمني إحساس يقهرني أن

أنـزع عن رأس جدي تلك الطاقيـة الصوف لأراه بدونها، لكنه يرى في ذلـك عارا مشـينا أن يمشي بدونهـا. تأتي جدتي آخـر النهار لتعيد علينا، لكـن نادرا ما تجمعهما زيارة واحدة إذا أتى هو مبكرا تنصرف هي متأخرة، وإذا تأخر هو بكرت هي في الحضور، لم أراهما يمشـيان معًا وعندما أسأل جدتي كانت تقول:

– ياللعيـب أمـشي مـع رجـل في الشـارع، لم نتعـود عـلى ذلك يا بنيتي.

كنا نسمع ذلك ونضحك.

جـدتي تخجـل أن تسـير بجانب جدي في الشـارع حتـى إنهما لو تصادفا وخرجا معا كل منهما في جانب هو في أول الطريق وهي تسير خلفه دائما.

جـدي كريم غـير متكلف في تصرفاته، تتسـم حركاتـه بالتلقائية والطيبـة لايلقي بالا لما يقوله النـاس أو يفعلونه، فعالمه الطبيعة البكر قبل أن تلوثها أيدي الناس.

ذهبنا لنواسي جدتي لوفاة أمها، قام جدي كعادته مرحبا يتذكر أن هناك صنف من أصناف الحلوى فيسرع ويأتي به، ثم يذهب لإحضار طعام غيره فيسرع ويأتي به هو الآخر، تزدحم المائدة بما لذ وطاب من صنوف الطعام .

تستشيط جدتنا غضبا لعدم مراعاة الترتيب في تقديم الطعام وتزداد المشاجرة، وما إن تهدأ الأمور حتى يذهب جدي ليحضر لنا زجاجات الكولا التي نحبها لم تسكت جدتي، اتهمته أنه يكره أمها طوال عمره لدرجة إنه راح يوزع على روحها الكولا. كنا نخفي ضحكاتنا حتى لا نعاقب من أمي وكان جدي يكره ذلك البروتوكول في تقديم الطعام ويقول لها:

- ماذا سيحدث لو قدمت الحلوى قبل الطعام، أو شربنا زجاجات الكولا قبل طعام الغداء. إنه يحب الطبيعة دون حاجة إلي ترتيب.

في كل مرة نذهب إلي بيت جدي يكون هناك موضوع مختلف للشجار، لكنها مناوشات لذيذة تتخللها دعابات فهو يحب أن يضغط علي أعصابها ليسمع كلامها، يحمر وجه جدتي حتى يصبح لونه في لون قرطها المتدلي من أذنها فلم تكن تغير لون حبات القرط فدائما ما يتدلي منه حبة حمراء في لون حبة الياقوت، وتبدو جدتي كأنها ديك رومي قد نفش ريشه واحمر وجهه، ومع ذلك كانت لا تطيق أن تراه متعبا في السرير، تذهب وتجيء مائة مرة على سريره لتطمئن أنه لا يحتاج أي شيء لكن لا تصرح له بكلمة حب واحدة فالحب

عندهـا عيـب حتى ولو كانت سـتصرح به لزوجهـا وشريك حياتها وأبو بناتها.

مرضـت جـدتي مرضـا عضال، جلس هـو إلى جوارهـا ولم تنته المناوشـات بينهما، ذات صباح كان وحيدا لم يفارق سريره لم يسـتطع أن يتجـول في المنـزل وكأن قدميه أبت أن تترك مكانـه بعدها، لم يعد يجد من يناوشه، ولم يعد يهتم أن يقدم الحلوى قبل الطعام أو بعده، لم يعد يرغب في أي شيء، غادر سريره، ذهب إليها ربما يتناوشـان من جديد لكنهما التحما كالمرود والمكحلة.

البراويـة

لم أنـس بعـد ذلك اليـوم ، عندما كنت في الخامسـة مـن عمري.. استيقظت عند الفجر علي صراخ ونحيب عرفت فيه صوت أمي.. كان والدي رحمه الله نهرا فياضا من الحنان والحب، أما الآن فقد نضب النهر وتركنا أربع أرامل، وامتدت أياد الخير لتربت علينا لكن أيادي الخير ليسـت كلها حانية فهي أحيانا كالصوف الخشـن بقدر ما تحنو تجرح وتؤلم ..

همـس الجميـع في أذن أمـي .. لمـاذا تتركـين الأبنـاء في المدارس دعيهم يعملون ويساعدونك وابعدي عنك هذا الحمل الثقيل لكنها أبت بشـدة. أتذكرها وهي تخرج في الصباح الباكر وتعود آخر النهار منهكـة، وقد نال منها التعب لكنها لا تستسـلم أبدا.. عودها صلب وإرادتهـا قويـة وأبناؤها أعـز عليها من نور عينيها. في المسـاء تنكفئ عـلى ماكينة الخياطة لتحيك بعض ملابس الجـيران والمعارف مقابل

مبالغ زهيدة كنت دائما أشعر أنني وحدي.. منزوية بعيدا لدرجة أن الجيران كانوا دائما يلقبونني (بالبراوية)..

أحاسيس كثيرة لم أكن أفهمها في تلك السن المبكرة، فهمتها بعد أن كبرت وأنجبت ابنتي ياسمين ، شعرت بها وأنا صغيرة حين كانت أمي تأتي بفستان لتلبسني إياه وقد جادت به إحدى الجارات أو المعارف أرفضه في البداية، لكن مع اصرار أمي ارتديه فأشعر أني أرتدي ثوبا من الشوك .. أحس بوخزه في أنحاء جسدي.

لم أشعر يوما بفرحة الفستان الجديد أو الحذاء الجديد الذي يتحدث عنه كل الأطفال .. أحيانا كثيرة أنزوي في ركن من أركان البيت أو خارجه أبكي بكاء شديدا.. تتعجب أمي من بكائي المستمر دون سبب معروف، ومع ذلك لم أطمع فيما يمتلكه الآخرون..

تقدم لي رجل طيب رشحته إحدى الجارات لأمي بعد أن أنهيت دراستي الجامعية من باب الشفقة وكأنها تجود علي بفستان جديد وهي تعدد مناقبه:

- جدع طيب وابن حلال وكريم .

رفضت في البداية لأنني كنت أريد أن أبحث عن وظيفة، لكن مع إصرار أمي وافقت وتزوجته .. كان زوجي يغدق بسخاء على

كل مـن حولـه ، بالرغم من أنه محدود الإمكانيـات، كنت في البداية سـعيدة لأننـي أشـعر بحبه لـكل الناس وبحـب الناس لـه، وعندما أنجبنـا طفلتنـا ياسـمين توقعـت أن كرمـه وجـوده سـيوجهان إلى ياسـمين. ولكن لم يحدث، كل ما يصل إليه كان يتسرب من بين يديه للآخرين.. تحدثت إليه بالحسنى مرات ومرات حتى قلت له :

– محمود.. ياسمين في حاجة إلى فستان جديد .

آخـر النهـار عـاد من الخـارج بكيس يطل منه فسـتان . فرحت لاسـتجابته السريعة وحبه لابنته ولكن عندما رأيت الفستان عرفت فيه فسـتان ابنة أخيه بكت الصغيرة فقد عرفته هي أيضا ، رأته مرات عديـدة على ابنة عمها ورفضت أن ترتديـه في البداية لكن مع إصرار والدها ارتدته .

رأيتهـا بعينـي بعد أن خـرج والدها تنـزوي في ركن من أركان البيـت وتبكي بحرقـة .. حينها قفـزت الصورة القديمـة إلي مخيلتي فاستشطت غضبا ورحت أعنفه بشدة .

في اليـوم التـالي أصر محمود أن يأخذنا لنزهة تعويضا عما حدث بالأمس، ففرحت واعتقدت أنه تأثر بابنته وانفعل بما قلته له .. ذهبنا إلي منـزل أختـه الكبرى وجـدت ابنتهـا وابنها وهما في أبهـى حلة .. وكانوا في عجلة من أمرهما فوجئت أمهما تقول :

– هيا يا محمود دع ياسمين تذهب مع الأولاد إلي النادي فلديهم تدريب هناك.

لم أعلق بشيء ولكنها عقبت :

– اذهبي معهما يا ياسمين . بابا هو الذي أصر أن يدفع اشتراك النادي ..

وجدت نفسي أقف علي الفور، وقد اندفعت الدماء إلي رأسي وسرعان ما هبطت أدراج السلم، وقد رمقتني أخته بنظرة المستفسر وانطلقت وأنا أجر ابنتي خلفي وهي تبكي تريد أن تذهب إلي النادي .

عندما وصلنا المنزل قامت الدنيا ولم تقعد حاول أن يثنيني عما عقدت النية عليه. وعدني ألا يكون في حياته سوى بيته وابنته الوحيدة وزوجته.

جاء أول الشهر الذي ننتظره بفارغ الصبر لنقوم بتسديد احتياجاتنا، وكانت هناك مناسبة ننتظرها ونعد لها ألف حساب وهى دخول ابنتنا المدرسة .. أصر أن يدخلها احدي المدارس الحكومية . اعتقدت في البداية أن سبب إصراره على تلك المدرسة هو قربها من المنزل فوافقت .

دق جرس التليفون ليأتيني صوت زوجة أخيه تسألني :

- هل ستذهب ياسمين مع أولادها المدرسة الخاصة ؟

أجبتها ..

- لا.. فقد قدم لها والدها في مدرسة بجوار المنزل .

فوجئت بها تقول :

- أما كان ينبغي أن يقدم لها محمود في نفس المدرسة الخاصة التي قدم لأولادي فيها .

لم أرد ، فلقد عقدت الحسرة لساني خاصة بعد أن أردفت :

- اشكري لي محمود كثيرا ، فقد أصر أن يدفع المصروفات رغم أن زوجي بعث إلي بها ..

وضعت سماعة التليفون .. ولم أدر ماذا أفعل ... النار التي بداخلي تكفي لأن تحرق الدنيا بأسرها. فلأول مرة في حياتي أرى كرما ممجوجا عكر صفو حياتي.

كنت كالأسد الجريح الهائج.. الذي يريد أن ينقض علي فريسته ليمزقها إربا.

دخل بعد منتصف الليل ليجدني واقفة عند الباب فانزعج.. وقبل أن ينطق ببنت شفة قلت له:

- محمود .. طلقني.

لم أنطق بسـواهما.. ولم أسـمع منه أي شيء.. حاول الجميع أن يثنـوني عـن عزمي لكنـي كنت قد حزمـت أمري وأخـذت قرارا لا رجعة فيه أبدا..

لم أسـتطع أن أمحو من ذاكرتي صورة ابنتي، وهي تجلس منزوية تبكي حتى لا ترتدي الفستان القديم، ويوم بكائها لتذهب إلى النادي مع أولاد عمها.. لا أحد يشـعر بها سـواي في هذا العالم ولن أجعلها صـورة مني .. نزلـت أبحث عن عمل .. عملت مدرسـة في إحدى المدارس الخاصة وسرعان ماأدخلت ابنتي معي في نفس المدرسة ..

مع أول راتب أخذت ابنتي نزلت أطوف بها كل المحال التجارية الفخمة لأشتري لها كل ماتمنيته أنا لنفسي وغمرتني الفرحة ..

أحببت العالم .. نسيت كل أحزاني وأنا أري ابنتي لأول مرة وسط الأطفال تكاد تطير فرحا بفسـتانها وحذائها الجديدين .. اصطحبتها ومشـينا معًـا مرفوعي الرأس .. سـاعتها فقط مددت يدي لأمسـح دمعتـين انحدرتـا عـلى خدي وانفـرج فمي عن ابتسـامة كبـيرة قدر اتساع العالم من حولي..

الهيلا هوب

اصطفت فتيات الحي كعادتهن كل يوم ليمارسن ألعابهن كن في غاية السعادة وهن يلعبن معًا رغم خلافاتهن المتكررة بسبب اللعب.. «الحجلة» هي أحب لعبة يفضلنها جميعا ولا أعرف سر تسمية هذه اللعبة باسم الأولة ؟ .. ربما لأن البنت تقفز على قدم واحدة طوال اللعبة بعد أن يرسمن على الأرض ثمانية مربعات بالطباشير يطلقن عليها البيوت ويقفزن من مربع إلى آخر أو من بيت إلى بيت ، محاولين زحزحة حجر صغير بأقدامهن أطول مسافة ممكنة . ولا أدري السر في تسمية هذه المربعات بالبيوت ؟ لعلها بيت المستقبل التي تحلم به كل فتاة من خطوط وهمية على الأرض إلى أعمدة وجدران تناطح السحاب وتتناطح معها أحلامهن الصغيرة هكذا كان البنات في الحارة يمارسن ما يحلو لهن من ألعاب إلا أنا فلم أكن أستطيع ، فقد بدأت معالم الأنوثة المبكرة تزحف على جسدي كأن بركانا تفجر

فجـأة بداخلي وكنت أحاول إخفاء هذه المعالم بكل وسـيلة، كاللص الـذي يخفـي في جيوبـه السريـة بمسروقـات ثمينة وكانـت أول من تفضـح محـاولاتي هذه أمـي ، فتقذفني بنظراتها الحـادة كي أدخل إلى البيـت ، وأتخذ مكاني الأثير خلـف النافذة أراقبهن في صمت بدموع صامتـة أحسـد طفولتهن التـي منحتهن الحرية وأنعـي طفولتي التي ولت مبكرة ..

اللهـم إلا لعبة واحـدة وجدت نفسي فيها لأنهـا لعبة فردية كنت أنـا لاعبتهـا الأولى والأخـيرة وأنا أيضـا الحكم والمشـجعين . لأنني أمارسها في حجرتي بعيدا عن الأعين .. الهيلا هوب .. قرص بداخل قدمـي يتدلى منـه حبل ينتهي بكوب ، وعندمـا أدور على قدم واحدة يـدور معي الكوب راسـما على الأرض دائرة وهميـة .. هذا كل ما في الأمـر فهي لعبة منعزلة مثـلي ورضيت بها ووجدت فيها ما يعوضني عن الحجلة واللعب مع البنات في الشارع.

كبرت وكبرت معي طفولتي، التي مازالت محبوسة خلف أنوثتي المبكرة ولم تخرج في أوانها فحكم علي بالانطواء والانعزال رغما عني. ومع ذلك أحببت هشـام زميلي في الجامعة كنـت أرى فيه تلك الحياة التي حرمت منها، الانطلاق والحيوية وخفة ظله وشـخصيته الجذابة التـي تلفـت انتبـاه كل من يـراه. تمـت الخطوبة سريعا لأكتشـف أن هشـام ليس لي وحـدي فحتى أخطب إليه ينبغي عـلي أن أخطب إلى

الشلة كلها، أما أنا فلم أكن أمثل بالنسبة له شيئا على الإطلاق ، وكما تمت الخطبة سريعا فسخت سريعا. وعدت إلى الهيلاهوب أشد من ذي قبل أقضي معظم وقتي في غرفتي عاقدة الطوق في قدمي وأقفز على قدم واحدة ليدور الطوق صانعا على الأرض دائرة لا أستطيع الخروج منها كدوامات البحر اللامتناهية.

وجدت أمامي كمال.. ابن خالتي.. شاب جاد ملتزم متفوق في دراسته، صامت طول الوقت لا يشعر به أحد. ما إن عرض علي الخطبة حتى وافقت على الفور. الأيام تمر معه بطيئة مملة ضقت ذرعا به، طول الوقت يكتب أشعارا، أجل كلها عني ولكنه لا يجرؤ أن يقف ليقرؤها على أحد . فقد كان خجولا بدرجة كبيرة، ويوم الخطوبة وقع الخاتم من يده وهو يلبسني إياه . لا يمكن أن يكون فتى لأحلام أي فتاة، إنه يذكرني بالهيلاهوب الذي أختلي به في غرفتي حتى لا يراني أحد. كرهت الهيلاهوب.. وصممت أن أغير كمال.. سأجعل منه الفارس الذي ظللت طيلة عمري أحلم به، لعبتي التي تمنيت أن ألعب بها أمام الناس دون خجل.

قمت بنشر قصيدة له في إحدى الجرائد، دعوته إلى إحدى الندوات، كانت الطامة الكبرى عندما جاء دوره ليلقي قصيدة على الحاضرين، أيقنت أنه ميت لا محالة . وجهه أصفر شاحب ، أنفاسه لاهثة ، تتصارع دقات قلبه، عرق كثيف يتصبب فوق وجهه، ركبتاه

تصطكان ببعضهما، أدركت خطأي، ما كان ينبغي أن أزج به في هذا الموقف، لكن عندما انتهى من قصيدته فوجئت بموجة من التصفيق من الحاضرين اعتلت ابتسامة الثقة على وجهه الخجول وتشجع بإلقاء قصيدة ثانية ثم ثالثة.

بعد أيام فوجئت بكمال يدعوني إلى ندوة كان هو منظمها ولأول مرة أجده يتحدث بهذه الثقة واللباقة . منذ ذلك الحين تركت الهيلاهوب.

العقرب

نظرات الفزع تنتفض من عينيها، صرخات تخرج مخنوقة من بين حبال الخوف تلتف حول عنقها.. عقرب ..عقرب، لم أستطع الحراك، جمدت مكاني من هول المفاجأة.. خلعت «نجاح» نعلها هوت به على صدري، أطاحت به بعيدا أسرعت تسحقه تحت قدميها وهي تردد:

- الحمد لله.

جلسنا لنلتقط أنفاسنا ونستعيد قوانا التي خارت أمام هذا الكائن الممدد بلا حراك وقد تيبست أطرافه بفعل حذاء نجاح، نظرت لها بطرف عيني وأنا أهمس لها ممتنة

- أشكرك.. لقد أنقذت حياتي.

- الشكر لله.

كان اليـوم الأول لي بكليـة البنات بتلك المدينـة المتربعة على قمم جبال عسـير جنوب السـعودية، ذات الطبيعة المتقلبة، حيث تتناوب عليها في الساعة الواحدة فصول السنة الأربعة.

رحت أقدم لهن نفسي:

- فاطمة الحريري زميلتكم الجديدة بقسم الاجتماع.

وراحت كل منهن تقدم لي نفسها:

- حنـان الخـولي أسـتاذة الأنثروبولوجي، عزيزة حسـين أسـتاذة الفولكلور، نجاح شعلان أستاذة أصول التربية.

الوحيـدة التـي تعلقت بها «نجـاح»، فقد أسرتنـي بموقفها معي وإنقاذها لحياتي. كنت أرى فيها مصرية صميمة من صعيد مصر، لها قامة معتدلة سـامقة كجذوع النخل. سـمراء بلون النيل عذبة مثله، قلبها يسع العالم بأسره، تتميز بخفة ظل غير عادية.

ذات يـوم جـاءت إلى الكلية شـاحبة الوجـه، غاضة العينين، دخلت حجرتها وأغلقتها عليها أسرعت إليها، وما إن فتحت الباب حتى فوجئت بها تنتحب، رحت أسألها:

- هل تشاجر معك محمد زوجك؟

هزت رأسها نفيا، رحت أسأل من جديد:

- هل حدث شيء في الأسرة؟

حركت رأسها يمنة ويسرة دون أن تتفوه بحرف واحد.

شعرت أنها لا تريد أن تبوح بمكنون نفسها، ولم أشأ أن أتطفل عليها أكثر من ذلك أيقنت أنها تعاني من شيء ما، تمر الأيام وكأنها تقتات عليها، فتسمن الأيام وتذبل هي، وكأن الأيام تأخذ من نضارتها، فخبا بريق عينيها، وذبل عودها، وسكنت في عينها نظرة شاردة لم أجد لها تفسيرا ولا معنى.

كانت نجاح آخر دكتورة التحقت بالكلية في غربتنا النائية، لكنها سرعان ما كسبت ثقة الجميع بجديتها.. سرعان ما انتشرت الإشاعات في كل مكان، راحت العقول تخمن والألسنة تلوكها فها هى عزيزة تقول:

– هل عرفتم من ستكون رئيسة القسم الجديدة إنها نجاح، بالرغم أنه لم يمض عليها هنا أكثر من ثلاثة أشهر.

أما خديجة فراحت تنعي حالها وتقول:

– لماذا تكون الزيادة من حقها، وأنا خدمت القسم والكلية سنوات طويلة.

مصمصت هدى شفتيها قائلة:

– البركة في الهدايا القيمة والعزائم التي تقدمها إلى رؤسائها لتكسب ودهم .

بالفعل أصبحت نجاح هى رئيسة القسم، ومع ذلك لم يتغير حالها نفس الشحوب والنحول والنظرة الشاردة، وقبل انقضاء العام سرى خبر بأن نجاح صارت عميدة الكلية، وبالرغم من الترقية الكبيرة فلم يبد على وجهها أية معالم للفرح أو السعادة، ولم تكف الزميلات عن الغمز واللمز والنميمة إلا أنا فكنت أشعر أن حملها أصبح ثقيلا لكني لا أعرف طبيعة هذا الحمل هل من عبء العمل المضني فهى تقضي النهار طوله في العمل ولا تعود إلى البيت إلا قبيل المساء،

ذات يوم فوجئنا بها :

- سوف أخبركن بشيء لن تصدقنه.

نظرت كل منا للأخرى وكأنها عرفت ما ستقول، ظن الجميع أنها ستحصل على منصب آخر أكثر علوا، وأنها تحاول تبرير قبولها، وأنها تعتذر لنا لأن هناك كثيرات أحق منها بالمنصب لخبرتهن.

ما إن همت بتحريك شفاهها، حتى انفجرت في البكاء دون أن تقول شيئا. زادت حيرتنا حاولنا بكل السبل أن نعرف ماذا يعتريها لكن دون جدوى. غابت عنا أياما كثيرة، عرفنا بعد ذلك أنها ترقد بالمستشفى، تعاني من مرض خبيث تمكن من عظامها، مرت أسابيع كثيرة وهي ترقد بالمستشفى، استردت بعض عافيتها لتخرج إلى البيت، راقدة في الفراش دون حراك.

ذهبنا لزيارتها.. لنجد وجها أصفر ذابل، كأن الحياة استردت كل ما منحتها إياها من نضارة، استحال الشباب في أيام لكهف مظلم، وشبح مخيف، تحولت قامتها الطويلة لانحناءة عجوز جاوزت السبعين، آهات وتوجعات مميتة، إذا أرادت أن تقول شيئا تكتفي بتحريك شفتيها لتقول بضع كلمات مبتورة لترهف سمعك لتتبين بالكاد ما يمكن أن تقوله.

نظرت إلينا نظرة يملؤها الحزن كأنها تطل علينا من عالم آخر، وبكلمات مبتورة راحت تقول:

- أنتن لا تعرفن أهمية الصحة والعافية، لا شيء يساويها على الإطلاق.

عند الباب وقفت نظرتان حزينتان لعينين دامعتين لا تعي من أمرهما شيئا، ولداها الصغيران، كانا ينظران إليها في إشفاق عاجز محير، بينما تحيط بها نظرات زوج يرى شريكة حياته وهي تبتعد.. تنزوي.. كأنها تستل من يده، تبتعد المسافات وعلى شفتيها ابتسامة باهتة ساخرة، تمنت لو أن هذه النظرات حبال قوية، مجدولة بالحب، لتلتف حولها وتجذبها إليه، تمنحها القوة والعافية لتضم النبتتين الصغيرتين..

راح العقرب يحكم لدغته هذه المرة، كم تمنيت في تلك اللحظة أن أرد جميلها وأقضي على عقربها كما قضت على عقربي، لكن شتان بين

العقربين همس الطبيب في أذن زوجها بعد أن أتم الكشف الدوري عليها:

- من الأفضل أن ترحل بها إلى مصر.

كانت كلماته يائسة مبتورة وكأنه قاض لم يجد في أوراقه غير حكم الإعدام بلا نقض أو إبرام.

عاد الزوج وحيدا كسيرا يلملم حاجياتها، استعدادا للرحيل، وقبل أن يغلق آخر حقيبة انتبه على رنين الهاتف خافتا متقطعا،امتدت يده إلى السماعة ببطء، هاجس حدثه بما يحمله الهاتف تراجعت يده كأن مسا أصابه ترك الحقيبة من يده انطلق هابطا أدراج السلم ثم إلى الشارع ، وكأن العقرب لدغه كما لدغها.

الانسلاخ

أطلت برأسها من مكمنها الأثير .. تلفتت يمنة ويسرة .. ملأت صدرها بعبق الحياة الذي حرمت منه شهورا طويلة وهي حبيسة في باطن الأرض .. تمطت بجسدها الانسيابي .. قفزت بمهارة فوق سطح الأرض كأنها لاعبة سيرك محترفة وراحت تزحف برشاقة ..

تمنت لو طارت مقلدة الفراشات والطيور التي تحلق حولها .. تمنت لو غردت مثلما تغرد البلابل .. تمنت لو مشت علي قدمين أو أربع مثلما تمشي الدواب .. تمنت لو صرخت بأعلى صوتها لتعبر عما يجيش بداخلها من سعادة .. ما أجمل الحرية.. ما أبهج الحياة .. ولكن هيهات .. هيهات..

فجأة أحست بشيء يسري داخلها لم تستطع التعبير عنه .. بالرغم من أن الحياة قد منحتها هذا الفيض من الحرية فإنها مازالت سجينة في هذا العالم الرحب المترامي الأطراف ، وأن مكانها الأثير في

باطن الأرض كان أرحب بكثير .. راحت تجري هنا وهناك .. تقفز تتمطى تتلوى تتثنى دون فائدة .. تنفست بصعوبة .. شيء يجثم علي صدرها .. أهدابها تتحرك بصعوبة .. حاولت أن تتملص من ذلك الشعور الذي اجتاحها فجأة دون مبرر فلم تجد وسيلة للتخلص منه .. هل هي النهاية ...؟ أم هي بداية جديدة...؟

تمنت لو بكت .. لو صرخت .. لو نادت بأعلى صوتها .. أنقذوني مما أنا فيه أخرجوني من هذا السجن .. ارحموني من هذا العذاب .. لكنها الحياة .. أبت إلا أن تظل خرساء . لا تستطيع أن تبوح بما في داخلها ..

فجأة .. تمزق شيء بداخلها .. لا لم يكن بداخلها .. بل حولها.. انه ذلك الغشاء السميك الذي يلف جسدها .. أطلت برأسها لتداعبها نسمات الحياة ، عادت إليها أنفاسها ، بدأ قلبها ينبض من جديد ، عاد الأمل يراودها.

سرعان ما تخلصت من هذا الإطار الذي يحتويها ويعوق حركتها، أخذ ينحسر عنها شيئا .. فشيئا .. تلفتت يمنة ويسرة .. قفزت في مهارة .. عادت ترقص رقصة الحياة مخلفة العدم وراءها ثاويا في جلدها القديم ، منحتها الحياة شعورا جديدا مع هذا الثوب الجديد .. أخذت تتلوى وتقفز في الهواء وتلف حول نفسها في استدارة كاملة كأنها راقصة باليه متمرسة .

انتبهت فجأة علي صوت يصرخ في أذني .. ويد تدفعني بعيدا.

_ احذري .. العقرب .. العقرب ..

جمدت في مكاني .. بينما راحت الأقدام تدوس ذلك العقرب الذي كان يقصدني . ودمعت عيناي .. تلفت حولي متأملة هذا المكان الذي تركت بلدي ووطني من أجله .. جبال شاهقة تمتد إلى عنان السماء تحيط بي من كل جانب رمال صفراء صفرة الموت .. سماء ملبدة بالغيوم .. إلا إذا تسللت أشعة الشمس خفية في أحد الأيام.

شعرت بالاختناق .. تذكرت يوم تركت وطني مساء دون أن يأتي أحد لتوديعي وكأنني ورقة شجر جافة ذابلة لفظتها شجرتها وقت الخريف .. يومها شعرت أنني أنسلخ عن جلدي ، تمنيت لو استطعت الخروج ، وحسدت هذا الكائن الذي يستطيع أن يغير ثوبه كلما ضاق عليه .. ولكن هيهات .. هيهات .

رحت أحلم باليوم الذي أجد فيه نفسي عندما أعود .. ولكن ظل هناك شيء ما يجثم علي صدري ..

المقعد الخالي

محفـورة ملامحه في قلبي وعيني ، مطبـوع طيفه في وجداني .. وجه أسـمر في لون سنابل القمح اكتسـى بحمرة تشربها من أشعة شمس ذهبية ، عينان عسـليتان صافيتان .. لم يعتد الشـكوى ، وكيف يشكو وهو يرى حبات عرقه تتسـاقط على بذور غرستها يداه فنمت وربت و أثمـرت زهـورا يانعة طالمـا تمناها، تفيـض روحه بالخـير للجميع فيمنحنا الحياة ولولاه ما كان لنا وجود ..

كم استشعرت دفأه في الليالي الباردة كأنني قطة تلوذ بفراء أمها هربا من زمهرير الشتاء ، كم استوحشت المكان عندما يكون في سفر وأقضي الأيام وحيدة تتسلمني أمراض غريبة يحار فيها الأطباء تزول سريعا عندما يعود .. فأرمي بنفسي بين يديه وأمرغ رأسي الصغير في صـدره الرحب فأجـد فيه الأمان الذي فقدتـه وترتد إلي روحي التي

زايلتني ، أرى الدنيا كلها بساطا أخضر مترامي الأطراف وكأن الفقر والجدب رحلا بلا عودة ..

نقشت السنون في مخيلتي كل لمحة من لمحاته وكل قسمة من قسماته .. الهامة المرتفعة ، الكبرياء المعهود ، ابتسامة وليد تتهادى على شفاه لم تكن تعرف الحزن ، يدان تقبضان بقوة لا تعرف الكلل ورقة لا تعرف اللين على مقبض مقعده الأثري الذي توارثه جيلا بعد جيل .. يزيد من فخامته ذلك الإطار الذهبي المحلى بفصوص من الأحجار الكريمة المطعمة بقشور من الصدف في تعشيقات متداخلة وانسجام متناغم حتى صارت كيانا واحدا ..

هكذا كان أبي وهكذا كنا .. مازالت رأسه تحتل مكانها في تجويف مقعده الأثري ذلك المقعد الذي شاهد مولدنا جميعا .. جلس فوقه في لحظات عصيبة ينتظر أن تخرج صيحة بعد أخرى إلى الحياة..

ما زلت أذكر كم طوقنا بذراعيه القويتين ونحن صغار كالدمى فوق قدميه صانعا من فخذيه حاشية ومن يديه وسائد لدنه .. كم أمطرنا بقبلاته الدافئة الحنونة وهو يؤرجحنا على مقعده لدى سماعه نبأ نجاحنا .. ولما كبرنا هرعنا إليه يحتوينا حياء العذارى ونخفي وجوهنا في مسنده حينما علمنا بمقدم عريس.

تتساقط الورقات وتتزاحم الذكريات لتملأ المقعد الذي لم

يبل بعد ، واختلطت دموع الفرح بنسيج الحزن مع تعشيقات المقعد فصارت حياتنا واحدة ..

أفقت من غفوتي على صوت أجش ، ووجه نحيل ، ويدين تحاولان أن تنأى بي بعيدا :

_ من فضلك يا هانم .. المقعد ..

وانتبهت على أجراس المزاد العلني معلنة بدء بيع محتويات البيت الذي خلا من صاحبه ، ولم أشعر بيدي وهما تقبضان على مقبض المقعد وكأنهما ماتتا عليه ، وبرأسي تغوص في تجويف مسنده لتملأه حتى صارت جزءا منه ، وبقدمي تتشبثان بأقدام المقعد فصارت وهي سواء ...

شعرت بصوت يخرج من أعماقي .. لم يكن صوتي أنا فحسب، بل صوت آخر اتحد مع صوتي فصار جهوريا قويا .. راح يصرخ في زفرة محمومة ممزوجة بالألم والرفض والتحدي:

-لا .. لا

إلا جدتي

« لم تكـن جدتي ككل الجـدات».. الصورة العالقـة بمخيلتي عن الجدة أنها أم رؤوم تغدق بسـخاء من ينبـوع حنانها الفياض على كل من حولها من الأبناء والأحفاد فتشملهم بعطفها وحنانها.. إلا جدتي لأبي ، فهـي جـدة مـن نوع خـاص .. بالرغـم من أنهـا أشرفت على الثمانين فمازالت تعتني بنفسها بشكل زائد ، وتتمسك بأهداب الدنيا بكل قوة كأنها تأبى ألا تتركها وفي كأسها قطرة واحدة ..

منـذ وعينا على الدنيـا عرفنا من خلالها تلك الأشـياء التي كانت تنهرنـا عليهـا جدتي لإحضارهـا في التو واللحظـة .. قلم الحواجب الذي ترسـم به حاجبيها ، الملقاط الـذي تزججهما به ، الكحل الذي تكحـل به عينيها فيزيدهما قسـوة على قسـوتها ، الحنـاء التي حولت رأسـها الأشـيب إلي هالة متوهجة من النار ، وأم إسماعيل صديقتها العجـوز التـي كانت تأتيها مـن وقت لآخر لعمل المسـاج لها ومدها

بالوصفات الشعبية التي لا تخيب رجاء ، والتي تجدد بها شبابها الذي انصرم وولي قبل الأوان «على حد قولها» وكثيرا ما تلقي بتبعة الزمن علينا نحن الذين جئنا إلي الدنيا فكنا والزمن عليها..

هكذا كانت جدتي «بدر» قاسية القلب كالحجر الصوان ، تعيش لنفسها فقط مع الأيام الخوالي التي ولت وتجتر أفراح الزمن البعيد .. تقوم الدنيا ولا تقعد إذا لمحت في وجهها الأبيض المستدير انحرافا أو تغضنا ، وتصب جام غضبها على الزمن وعلينا و تنعي أمها وأباها اللذين رحلا منذ نصف قرن أو يزيد وتركاها فريسة للزمن الغادر ..

لا أنسى ذلك اليوم الذي جاءها فيه نبأ وفاة أحد أبنائها ولفرط دهشتي وجدتها تلملم حاجياتها وتنهرنا للبحث معها عن الطرحة السوداء والعباءة المطرزة والمنديل الذي تخرج به في مثل هذه المناسبات والجورب الأسود والحذاء ولا تنسى بالطبع حق النشوق الذي لم يكن يفارقها ليل نهار ..

سامحيني يا جدتي كنت أتمنى أن تكون الصورة التي في مخيلتي عنك غير تلك .. مازالت أصابعك الخشنة المخضبة بالحناء مغروزة في جسدي ، فلا أنسى قرصتك التي تخرج بالدم وتترك مكانها علامات زرقاء مستديرة في أجسامنا .. حتى حكاياتك التي كنت ترويها لنا عنوة لكي تنعسينا لم تكن تخلو من قسوة ورعب ، فكنت

أسمع من صديقاتي عن الحكايات التي ترويها لهن جداتهن عن الشاطر حسن وسندريللا .. والأقزام السبعة ..

أما في سرير جدتي الحديدي ذي الأعمدة الأربعة بالناموسية البيضاء عرفت فيه العفاريت والأشباح والقطة المخاوية التي يأتي إليها صاحبها كل يوم وهو معمم بأمعائها .. ويداه مخضبتان بالدماء..

تزوجت جدتي ست مرات آخرها شاب يصغرها بأربعين عاما استولى على كل ما حصدته في سني حياتها وهرب بعد أن باع بيتها.. تنصل جميع أبنائها لها ، فمن ذا الذي يستطيع أن يتحمل تلك المرأة المتصابية المتسلطة التي لم ترضعهم غير القسوة والجفاء .. إلا أبي فقد أصر أبي أن تبقى عنده معززة مكرمة فأفرد لها غرفة خاصة في بيته المتواضع وبدلا من أن تشمله بحنانها وعطفها زادت قسوتها نحوه وتحركت مشاعرها نحو أبنائها وأحفادها الآخرين الذين تنصلوا لها.. فزادت شكوتها نحونا وتبرمها منا وقسوتها علينا خاصة على أمي ، لكن أبي كان دائما يمتص غضبنا ويذكرنا بأنها أمه وجدتنا .. فاعتدنا على قسوتها مع شدتها من أجل أبي ..

في أحد الأعياد أرادت أن تمثل جدتي دور الجدة فنادت علينا جميعا في الصباح وفوجئنا بها تدس في يد كل منا عيديه .. بضعة قروش قليلة .. لم تكن عادتها .. بعد قليل نادت أخي ليشتري لها

حق نشـوق .. فتلكأ الصغير بحجة أنه يلعب مع أقرانه .. لدهشـتنا وجدناها تطالبه بالعيدية.

كانـت صدمـة لنا جميعـا قبل أن تكون للصغـير ، وعقدنا نحن الصغـار اجتماعـا مغلقـا .. اجتمعنا علي شيء واحد ربما لا نسـتطيع الآن أن نجتمـع ونحـن كبار .. فقـد رد كل منا عيديتـه إليها وتركنا لهـا الحجـرة وانصرفنـا .. لقـد ثرنـا جميعا على شـئ بداخلنـا لم نكن نعـرف معناه حينئذ .. عرفنـاه عندما كبرنا .. إنه الكرامة .. حتى مع جدتي..

ساعة جدي

ساعة جدي .. قديمة تدق دقات منتظمة.. لا تقدم ولا تؤخر.. نضبط عليها ساعات المنزل بأسره، الجميع يستيقظ عليها، أبي لا يذهب إلي العمل إلا على دقاتها فلها وقع جميل في أذني ، اعتدت على سماع دقاتها في كل وقت، في الصباح لا أذهب إلى المدرسة إلا بعد أن أسمع تلك الدقات.

في الظهيرة لا نتناول الطعام إلا مع دقاتها الثلاث، في العاشرة تماما موعد تناول العشاء..

موعدي مع الأحلام السعيدة فأمي دائما تقول لنا من يتأخر عن ذلك الموعد تهجره الملائكة ، وليس له حظ في الأحلام السعيدة ولا يصير كبيرا وعفيا..

كانت ساعة جدي هى بوابتي إلي الأحلام السعيدة.. ساعة.. ذات طابع خاص.. تختلف عن ساعة والدي، وساعة أمي وساعتي، طراز من الساعات لم أره قط في حياتي، فطريقة ارتدائها لم أرها إلا

في الأفلام القديمة، تعلق الساعة بسلسلة ضخمة يطلق عليها والدى «كاتينة»، في سترة الجيب الداخلي للجاكيت بحيث تتدلى السلسلة من الخارج.

ذات يوم استيقظت في فزع فلقد تأخرت عن موعد المدرسة، لم تدق ساعة جدي لم يذهب والدي إلى عمله، كذلك أمي وإخوتي، توقفت حركة العمل في منزلنا فساعة جدي قد تعطلت.. لم نتناول طعامنا في الموعد..لم نلتق على المنضدة التي تجمعنا هذا بضحكة وذاك بنكتة، لم أدخل من بوابة أحلامي الجميلة، بل هاجمتني الكوابيس، شعرت أن الحياة قد توقفت، أسرع والدي لإصلاحها عاد كل شيء إلى مكانه انضبط منزلنا من جديد..

كنت أتعجب لتلك الساعة التي لا ترتدى في اليد، بل يستخرجها والدي من علبتها، يقلبها في يده ينظر إليها بإمعان، لم أكن أفهم في البداية ما يفعله والدي، ربما يبحث عن شيء وسط هذه الأوراق والمقتنيات القديمة، عندما كنت اسأله كان يقول لي:

- إني أشم فيها رائحة جدك.

لم أكن أفهم ماذا يقصد، وكنت بدوري اسأله، هل يمكن أن تحتفظ الساعة برائحة جدي طوال هذه السنوات؟

أتشمم ساعة جدي لعلي أظفر بهذه الرائحة التي يعشقها والدي

بتلـك السـاعة القديمـة أو شيء من متعلقـات جـدي .. حينها كان والدي يربت علي كتفي ويضحك ..

كبرت وصرت أسـتمتع باسـتخراج ساعة جدي، ومقتنيات والدي، صرت أشـم فيها رائحة الماضي الذي لن يعود ، أتذكر تلك اللحظات التي عشناها معا ، ضحكنا كما لم نضحك ، لعبنا حول أبي وأمي نشـعر بالأمان لا نخشـى شيئا .. نفكر في اللحظة التي نعيشها الآن..

ارتبطـت دقات السـاعة في رأسي بسـاعة جـدي، ظلت تعمل لفـترة طويلـة، دون أن يمتد إليها يـد العبث، وجدتنـي أفتح العلبة أقلـب مقتنياتهـا في يـدي، أسـتخرج السـاعة مـن مكمنهـا الأثـير، أضبطها وأقـوم بتزييتها حتى تعود لتعمل مرة أخرى، اطمئن إلي أن كل شيء يعمل بانتظام، لكني انشـغلت عنها نسيتها كما نسيت معها أشـياء كثـيرة ، عندما تذكرتها كانت لا تعمل فكـرت أن أعيد إليها الحياة مرة أخرى.

انضبطت الساعة، راح كل شيء يعمل بانتظام ، بريقها الأخاذ دقاتها المنتظمة.. شـعرت بقوة تسري في جسـدي، قوة نسـيتها طيلة سـنوات طويلة لكنـي اليوم عدت قادرة على الإختيـار واتخاذ القرار أشم فيها طعم الذكريات.

المؤلفة في سطور

* د/ عطيات فتحي ابراهيم أبو العينين

* مقدمة برامج بالإذاعة والتليفزيون.

* الجنسية :مصرية

* للتواصل

attaneen@hotmail.com- attaneeeen@yahoo.com

المؤهلات الدراسية:

1- ليسانس آداب قسم علم النفس جامعة القاهرة

2- تمهيدي ماجستير قسم علم النفس جامعة عين شمس

3- ماجستير في الآداب والفلسفة قسم علم النفس كلية الآداب جامعة عين شمس - بتقدير امتياز . موضوع الرسالة/ الاغتراب النفسي لدى الشباب في ضوء المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية.

4- دكتوراه في الآداب والفلسفة قسم علم النفس بمرتبة الشرف الأولى . وكان موضوعها : «ديناميات الاختيار الزواجي وعلاقته ببعض المتغيرات النفسية والاجتماعية.

الإهتمامات الأخرى:

- كاتبة للقصة القصيرة

- تكتب المقال الأدبي

- تقوم بعمل أبحاث ودراسات أدبية ونفسية

أعمال منشورة

1- أطفال حكموا العالم دار فرحة 2003 م

2- ضرتي مجموعة دار النيل قصصية2005م

3- مرارة المشمش مجموعة قصصية الهيئة العامة للكتاب 2008م

-موسوعة أطفال حكموا العالم تصدر عن دار المعارف صدر منها :

4-الاسكندر الأكبر2006م

5-بطرس الأكبر 2006م

6-بيبي والقزم دنج2007م

7-الحاكم بأمر الله الفاطمي 2008م

8- الامبراطور المغولي أكبر2008م

9-خمارويه والأسد زريق2009م

10-الناصر محمد بن قلاوون2009م

11- بيبي قاهر الرمال روايات الهلال للأولاد والبنات 2008م

12-شبابنا بين غربة واغتراب صدر عن الهيئة العامة للكتاب 2007م

13-تيجان فوق روءس صغيرة صدر عن الهيئة العامة للكتاب 2007م

14-مشرفة أينشتين العرب، دار الفاروق ،سلسلة العلماء العرب 2009م

15- مشرفة عاشق الذرة، دار المعارف، سلسلة أفكار غيرت العالم2010م

دراسات نفسية نشرت بالمجلات:

_ الإغتراب والشباب : دراسة نفسية لمفهوم الإغتراب نشر بمجلة علم النفس بالهيئة العامة للكتاب2007م.

- الزواج والتوافق النفسي: دراسة نفسية نشرت بمجلة علم النفس بالهيئة العامة للكتاب .

- دراسة استطلاعية عن المشكلات التي تعاني منها الطالبات السعوديات في كلية التربية للبنات بالباحة بالمملكة العربية السعودية، مجلة علم النفس عدد يناير -يونية 2009م.

- الطلاق ظاهرة العصر: سلسلة اقرأ، دار المعارف 2010م.

عضوية الجمعيات

- عضو اتحاد كتاب مصر

- عضو نادي القصة.

- عضو جمعية الكاتبات المصريات.

الفهرس

طعم الذكريات	3
بنت رأوه	13
حقيبتي الفرعونية	20
المصحى	26
ليلة زفاف	33
سر اللوحة	39
النص بالنص	47
صورة طبق الأصل	51
السوار الذهبي	54
الغوص	65
البصقة	69
القوقعة	73
الخالة ريحانة	77
عربة القمامة	85
ثورة المرض	89
مرارة المشمش	93
الصفعة	97
رائحة الذكريات	102
النيشان	104
أبلة وداد	107
أستاذ زاهر وأبلة عصمت	110
عصاية الغلية	118
عفريت الأستاذ عبد القادر	121
أبلة سعاد وإلهام الشعر	124
صورة على الجدار	128
بياع البطاطا	132
النقيضان	135
المرود والمكحلة	138
البراوية	144
الهيلاهوب	150
العقرب	154
الانسلاخ	160
المقعد الخالي	163
إلا جدتي	166
ساعة جدي	170